

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

كلية العلوم الاجتماعية
والعلوم الإسلامية
قسم علم الاجتماع والديمقراطية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الحاج لخضر - باتنة -

دور الأسطورة الدينية في بناء النظام الاجتماعي

دراسة نموذج من النظام الاجتماعي الأشوري

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع
تخصص: علم الاجتماع الديني

إشراف الدكتور:
العربي بن الشيخ

إعداد الطالبة:
فضيلة لكبير

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الصفة	الجامعة الأصلية
أ.د/ أحمد بوزراع	أستاذ التعليم العالي	رئيساً	جامعة باتنة
د/ العربي بن الشيخ	أستاذ محاضر	مقرر	جامعة باتنة
أ.د/ نورالدين زمام	أستاذ التعليم العالي	عضوا	جامعة بسكرة
د/ مولود سعادة	أستاذ محاضر	عضوا	جامعة باتنة

السنة الجامعية
2009-2008

شكر و تقدير

الشكر الجزيل لمن كان له الفضل الكبير بعد الله سبحانه
وتعالى في إنجاز هذا البحث وإتمامه، وأعني بذلك الأستاذ

المشرف الدكتور

العربي بن الشيخ

الذي تحمل أعباء الإشراف على هذه المذكرة رغم كثرة
المشاغل والأعمال، ولم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته
ومعلوماته القيمة.

إهداء

أهدي ثمرة جهدي هذه إلى والدي العزيزين
وإلى زوجي الذي كان لي نعم المعين
ولا أنسى آمال المستقبل، أصيل، فراس، ابتهاج
وإلى جميع أفراد أسرتي وكل من قدم لي يد المساعدة

خطة البحث

مقدمة

الفصل الأول: الإطار المفاهيمي للدراسة

المبحث الأول: أهمية الموضوع

المبحث الثاني: أسباب الاختيار

المبحث الثالث: الأهداف

المبحث الرابع: الدراسات السابقة

المبحث الخامس: تحديد المشكلة وصياغتها

المبحث السادس: تحديد تساؤلات الدراسة

الفصل الثاني: تحديد مفاهيم الدراسة

المبحث الأول: مفهوم الأسطورة

المطلب الأول: مفهوم الأسطورة لغة

المطلب الثاني: مفهوم الأسطورة اصطلاحاً

المبحث الثاني: مفهوم الدين

المطلب الأول: مفهوم الدين لغة

المطلب الثاني: مفهوم الدين اصطلاحاً

المبحث الثالث: مفهوم الأسطورة الدينية

المبحث الرابع: مفهوم النظام الاجتماعي

المطلب الأول: مفهوم النظام الاجتماعي لغة

المطلب الثاني: مفهوم النظام الاجتماعي اصطلاحاً

الفصل الثالث: موجز تاريخي عن نشأة الأسطورة والنظريات التي حررت في ذلك، وعرض تعبير أساطير الأولين في القرآن الكريم

المبحث الأول: نشأة الأسطورة من الناحية التاريخية

المطلب الأول: النظرية الدينية

المطلب الثاني: النظرية التاريخية

المطلب الثالث: النظرية الرمزية

المطلب الرابع: النظرية الطبيعية

المبحث الثاني: الأساطير في القرآن الكريم

الفصل الرابع: علاقة الأسطورة بغيرها من المصطلحات المشابهة لها

المبحث الأول: علاقة الأسطورة بالخرافة

المبحث الثاني: علاقة الأسطورة بالحكاية البطولية

المبحث الثالث: علاقة الأسطورة بالحكاية الشعبية

المبحث الرابع: علاقة الأسطورة بالفلكلور

الفصل الخامس: دور الأسطورة في بناء النظام الاجتماعي الآشوري - نموذجاً-

المبحث الأول: إجراءات المعالجة المنهجية لموضوع الدراسة

المطلب الأول: دراسة تاريخية عن الامبراطورية الآشورية وشعبها

المطلب الثاني: المنهج المطبق في موضوع الدراسة

المبحث الثاني: دور الأسطورة الدينية في بناء

المطلب الأول: النظام الديني

الفرع الأول: المعتقدات

الفرع الثاني: الأخلاق

الفرع الثالث: التشريع

المطلب الثاني: نظام الأسرة

الفرع الأول: الزواج

الفرع الثاني: الطلاق

الفرع الثالث: الميراث

الفرع الرابع: التبني

المطلب الثالث: النظام الاقتصادي

الفرع الأول: الزراعة

الفرع الثاني: الآفاق التي فتحتها الزراعة

المطلب الرابع: النظام السياسي

الفرع الأول: السلطة

الفرع الثاني: فرع النظام

الفرع الثالث: تشكل الجيش

الخاتمة

التوصيات

قائمة المراجع

مقدمة

تعتمد الدراسات الاجتماعية الدينية لتراث أي شعب على أصول تاريخية قومية، وأحيانا تكون هذه الأصول عريقة في القدم كما هو الحال في تراث شعوب بلاد الرافدين الذي يمثل تراثها التراثُ الآشوري البابلي، وهذا الأخير يعد الطور المتأخر زمنيا في المنحى الحضاري للمنطقة فهو يضم تاريخيا التراث الحضاري والثقافي لل سومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين، وبذلك يمثل طور النضج ومرحلة الكمال التي تجسد أرقى صور النظام الاجتماعي الناجم عن تفاعلات العناصر الثقافية والدينية المصقولة والمهذبة بالتجارب والاحتكاكات مع الأمم المتاخمة لشعوب المنطقة، إن هذا المجتمع هو أصل جماعات بلاد الرافدين ولم يذكر التاريخ ولا الحفريات الأثرية عن وجود مجتمع أقدم منه سكن هذه المنطقة، كما أظهرت المكتشفات الأثرية التي تمت في بلاد الرافدين وجود تاريخ عريق في القدم وضعه كهنة المعابد في سومر وأكاد وأشور لاحقا. وكذلك يعتبر الشعب الآشوري من أقدم وأعرق شعوب العالم، يرجع تاريخه المكتوب لعدّة آلاف من السنين، والذي هو خلاصة لامتزاج وتزاوج وتكامل مراحل وعهود عديدة بدءا من السومريين ومرورا بالأكاديين والبابليين والآشوريين وحتى الآراميين.

فمن هؤلاء جميعا يصلنا الميراث الحضاري والثقافي لشعب بلاد النهرين الذي يجذب الكثير من الباحثين والمتخصصين إطلاق اسم الشعب الآشوري عليه.

يذهب المؤرخون الباحثون إلى القول بأن المنطقة الجغرافية الواقعة بين جنبات دجلة والفرات تشكل وطنا واحدا؛ قوميا وجغرافيا وتاريخيا. وتنقسم هذه المنطقة إلى قسم شمالي تعلوه الجبال والهضاب، وقسم جنوبي تتخلله المستنقعات، حيث تركز استيطان الشعب الآشوري في البداية على ضفاف وادي الفرات؛ لأن فيضان الفرات كان أقل عنفا من فيضان نهر دجلة وكانت

المدن الأولى التي ظهرت للوجود هي: أور، أورك، أريدو، لغز، الوركاء، أكاد،... ضمن منطقتي سومر وأكاد. وهاتان التسميتان هما تسميتان مكانيتان أطلقت فيما بعد على الشعب الذي سكن في هذه البلاد. وكذلك بالنسبة لمدينة بابل أطلق على ساكنيها اسم البابليين، وقد هاجر قسم منهم فيما بعد الألف الثالث قبل الميلاد باتجاه الشمال حاملين معهم الإله آشور حتى المثلث الرابي وبنوا مدينة على اسم هذا الإله وسموا بالأشوريين، وآخرون استمروا بالتزوح إلى جبال آشور وطور عبدين، وعرفوا بساكني الجبال، وعرفوا فيما بعد بالآراميين.

لقد خلف السومريون والأكاديون والبابليون والأشوريون في بلاد الرافدين تراثا ثقافيا وحضاريا متطورا عبر مساهمهم التاريخي.

من هذا التراث العريق المشترك لبلاد الرافدين، وصلتنا أساطير وخرافات أرض الرافدين بأشكال سومرية وبابلية وأشورية.

تعتبر الأساطير المصدر التاريخي الأهم، لحقبة زمنية كانت خالية تماما من أي مصادر مكتوبة، كما كانت خالية من كل شكل من أشكال الكتابة. لذلك كانت الأساطير موجودة عند الشعوب كلّها؛ وكانت هي نفسها تاريخ الشعوب، ولكن ليس تاريخها العادي، بل تاريخها المقدس. وكانت الأساطير وحدها التي تمثل أهمية كبرى؛ لأن الآلهة أنتجتها في الأزمنة الغابرة، وعندما انتهى العصر البدائي (عصر ما قبل الكتابة) انتقلت المجتمعات البشرية إلى الحضارات الزراعية القديمة، ولكن الأساطير لم تندثر تبعا لذلك ولم تستبدل بها المؤلفات التاريخية.

لقد بقي كثير منها يواصل تناقله عبر الأجيال، وإن في صيغة مختلفة، لكن ليس للأسطورة زمن: أي أنها لا تقصّ عن حدث جرى في الماضي وانتهى؛ بل عن حدث ذي حضور دائم.

فزمانها زمن مائل على الدوام لا يتحول إلى ماضٍ. إن الإله تموز (إله الخصوبة) الذي قتل ثم بعث إلى الحياة، إنما يفعل ذلك في كل عام، إذ يقتل في الصيف ويبعث إلى الحياة في الربيع، والإله مردوخ، الذي خلق الكون ونظمه في الأزمنة الغابرة الأولى، إنما يفعل ذلك في كل عام ومع بداية السنة الجديدة (أفريل حسب التقويم البابلي) حيث يقوم بإعادة خلق الكون وتجديده.

وعندما لا يكون للأسطورة هذا الطابع الدوري المتكرر الواضح، فإن مضمون الأسطورة يعبر عن حقيقة أزلية لا يطاؤها تغيير؛ فأسطورة خلق الإنسان من تربة الأرض ممزوجة بدم إله قتل، هي تأسيس لفكرة الطبيعة المزدوجة للإنسان وتكوينه من عنصر مادي وآخر سماوي مقدس.

لقد وصلت إلينا هذه الأساطير وغيرها. ولعل كل من قرأها تساءل عن كنه ما جاء فيها من حقائق؟

لقد انشغل بهذه المسألة حتى الآن أكثر من جيل من العلماء وكان كل جيل قد عرض فهمه عن الأساطير التي تعد واحدة من أكثر ظاهرات الثقافة الإنسانية تعقيدا. وطرح كل جيل نظريته أو نظرياته، فتشكل نتيجة لذلك كم هائل من التأويلات.

ولكن مهما تنوعت الأساليب التي طرحها العلماء لفهم الأساطير، فإن مواقفهم تختلف اختلافا جوهريا عن مواقف القدماء الذين عاشوا في عالم الأساطير بصفته عالمهم الأم.

لقد آمن هؤلاء الأقدمون بالأسطورة ولم يدرسوها، ولم يروا فيها اختلافا، أو وهما أو غباء. إنما كانت بالنسبة لهم واقعا حقيقيا لا يدانيه أي واقع آخر، وعلى منواله سارت حياتهم كلها.

فبمساعدة الأساطير بالذات اخترع هؤلاء العالم المحيط بهم، وحاولوا أن يفهموا كنهه ويعبروا عنه بالكلمة، والصوت، والرسوم والنحت وسوى ذلك من الوسائل التي توفرت لهم. ولم ير القدماء في الأساطير اختلاقاً وهمياً، أو سخافات خيالية منافية للعقل، وقد أشار العالم الروسي: **أ.ف. لوسيف** في كتابه: (فلسفة الأسطورة) إلى: «أن الأسطورة عملية وحيوية، ولا تعد اختلاقاً وهمياً، بل مستوى ضرورياً من مستويات الوعي والواقع، ونتاجاً حسياً وشيئياً للواقع».

ولم تساور أذهان القدماء أسئلتنا في أي يوم من الأيام: ما الحقيقة، وما الاختلاق في الأساطير؟ لقد آمنوا بصحة الأسطورة إيماناً مطلقاً لا تحده حدود، وكل ما روته الأساطير كان بالنسبة إليهم حقيقة كاملة مطلقة، ولم يأت إيمانهم هذا لكونهم أغبياء؛ ونحن أكثر ذكاء منهم؛ بل لأن الأساطير كانت ترسم لهم السبيل التي يجب عليهم أن يسلكوها بصفقتها تحتوي على مستوى إلزامي وضروري للاستقامة. كما لم يطرح في الزمن القديم سؤال عمن أنشأ الأساطير.

لقد كان الاعتقاد السائد: أن الأسلاف نقلوا الأساطير إلى الأجيال اللاحقة، وأن الأسلاف أنفسهم تلقوها من الآلهة. ومعنى هذا أن الأساطير مصدرها لاهوتي مقدس، وأنه ينبغي على الناس أن يحافظوا عليها في ذاكرة الأجيال، دون أن يحاولوا تغييرها أو إضافة أي جديد عليها، وكانت الآلهة بالنسبة لتلك المجتمعات كائنات واقعية بواقع الجماعة، ولذلك لم تظهر لديهم أي دوافع للشك في هذه الحقيقة.

لقد تراكت في القصص الأسطورية تجارب ومعارف عدة أجيال كثيرة، ومعتقداتها، وطقوسها. ولكن لا نستطيع أن ندعو القصص والحكايات القديمة كلها أساطير.

فالأساطير تحظى بمكانة مبدجة ونصوصها مقدسة؛ إذ يحظر عرضها بصراحة شديدة في غير المكان والزمان المناسبين، وعلاوة على ذلك تحمل الأساطير في غالب الأحيان طابعا تفسيريا، فهي تروي قصص نشوء شيء من الأشياء أو الظواهر، مع تحديد الشكل والصورة للأشياء، ومع ذلك ليس كل ما خلفه الإنسان الأول فيما يتعلق بحياته ونظامه ومعارفه، وتفاصيل سجلاته اليومية وغيرها يعد من الأساطير، وليس كل مدون أسطورة؛ لذلك سوف يتوجه التركيز في هذه الدراسة على الأسطورة الدينية وهي تلك المدونات التي تناولت موضوع الكون، والخلق، والإنسان الأول، والتطور المعرفي، وأساليب التعلم. محاكاة لنسق الأسطورة في بناء النظام الاجتماعي، ونشر الحضارة: أي أن هذا البحث سيتناول دراسة المدونات القديمة التي حملت صفة القدسية، وتضمنت مفاهيم عقائدية، وظواهر كونية، وبيانات تعليمية بنائية حضارية، إنها تلك المدونات التي حفظت في المعابد، وحظيت برعاية الكهنة والملوك. كما أن سرد بعض الأساطير جاء للاستدلال بها، لا لمناقشة صحتها.

وتفصيلا لموضوع البحث «دور الأسطورة الدينية في بناء النظام الاجتماعي»، فقد ارتأينا تقسيمه إلى خمسة فصول على النحو التالي:

الفصل الأول: ويتمثل في الإطار المفاهيمي للدراسة، ومن خلاله تم التمهيد لموضوع البحث، وبيان أهميته ودوافع اختياره وأهدافه، ثم عرضت إشكاليته في صيغة تساؤلات أثارها الموضوع.

الفصل الثاني: عرضنا فيه المفاهيم المتداولة في الدراسة.

في هذا الفصل وقفنا مطولا عند مصطلح الأسطورة، حيث تعددت تعريفات الأسطورة تعددا واسعا. بسبب تعدد منطلقات الدارسين للأسطورة وغاياتهم ووسائلهم، وتداول المصطلح

في مختلف مجالات العلوم الإنسانية؛ أي صلته بما يسمى الحضور الكلي في المعرفة، أو الدراسات
البينية التي تعني تردد موضوع واحد بين أكثر من حقل معرفي.

وما يقال عن الأسطورة يقال عن الدين.

وهذا التعدد في التعريفات لا يرجع إلى عدم قابلية الأسطورة والدين للتعريف، بل إن
التباين في الأفضليات وزوايا النظر.

وهذا الوضع لا يقتصر على مادة دراستنا هنا، بل هي شأن معتاد كلما تعلق الأمر بظاهرة
من ظواهر الحياة الإنسانية.

الفصل الثالث: يتناول مقدمة عن نشأة الأسطورة والنظريات التي وضعت في ذلك، ومن ثم
مناقشتها كما يتعرض الفصل نفسه إلى تعبير «أساطير الأولين» الوارد في القرآن الكريم، حيث
يمضي للتعرف على سر ذكر هذا التعبير في كتاب الله.

الفصل الرابع: تعرضنا فيه للأساطير التي تحولت إلى مجرد أدب دنيوي يعيش على هامش الدين،
وذلك بسبب تطور اللغة وتنوع أساليب التعبير، هذا التحول تشكلت منه الحكايات الخرافية -
والتي هي أشد شبهها بالأسطورة- والحكايات البطولية والحكايات الشعبية والفلكلور.

أما الفصل الخامس: فهو فصل تطبيقي

نتناول فيه دور الأسطورة الدينية في بناء النظام الاجتماعي من خلال دراسة النظام
الاجتماعي الآشوري نموذجاً. فنبدأ بعرض نبذة تاريخية عن الآشوريين وبلادهم في الفترة الممتدة
بين (2000ق.م-609ق.م) وعالجنا فيه المسألة التالية:

«هل اسْتُخْدِمَت الأسطورة الدينية لتكون قالباً لتعليم الدين والسلوك، وتثبيت الاجتماع والنظام؟».

وبعد الدراسة اتضح لنا أن الأسطورة هي النواة التي يتشكل حولها نسيج النظام الاجتماعي الديني والثقافي والسياسي. وبعدها استخلصنا نتائج الدراسة وقدمنا الاقتراحات والتوصيات التي تبين لنا أنها جديرة بعناية الباحثين في دفع الدراسات والبحوث نحو مقاصد معرفية راقية ونبيلة.

الفصل الأول

الإطار المفاهيمي للدراسة

أولاً: أهمية الموضوع

ثانياً: أسباب الاختيار

ثالثاً: الأهداف

رابعاً: الدراسات السابقة

خامساً: تحديد المشكلة وصياغتها

تحديد تساؤلات الدراسة

أولاً- أهمية الموضوع:

إن دراسة الأساطير اليوم، لا تقل أهمية عن دراسة تاريخ الفلسفة، أو تاريخ العلم، فكل هذه المجالات تؤلف الجزء الأهم من ميراث الحضارة الإنسانية وثقافتها، هذا الميراث الذي تعيننا دراسته على فهم الماضي وفهم الحاضر واستشراف المستقبل، يضاف إلى ذلك أن الأسطورة ليست حدثاً حدث في الماضي وانتهى، بل هي شأن حاضر من شؤون حياتنا الراهنة فردية كانت أو جماعية، فعلى مدى آلاف السنين قدمت الأساطير المادة اللازمة للكثير من الفنون العالمية الشهيرة كما أهتمت مع الشخصيات الأسطورية الأدباء والشعراء والفنانين إبداع روائع الأدب والموسيقى والهندسة المعمارية، والرسم والنحت، فقد روت وقائع وأحداث المدن القديمة وذكرت أحوال ملوكها وشخصياتها، كما أنها حفظت فنونا وعلومًا ومعارف مختلفة عن نشأة الكون وبداية الحياة وخلق الإنسان ومراحل التطور البشري والأهم من ذلك، فإنها زودت الإنسان بمقدرة هائلة على التفاعل مع الواقع بكل أبعاده، لتبدع الأفكار والأنظمة الاجتماعية من أجل تحسين حياته بأفضل الوسائل المتاحة.

فلقد استطاعت الأساطير الدينية أن تحدد الغايات الأساسية من وجود المجتمعات في جانب تحقيق الخير والعدالة للجميع، وتمييز الفضائل عن الرذائل.

وبذلك فدراسة الأساطير الدينية يتم تحقيق أمرين على قدر كبير من الأهمية.

أولها: التعرف على تصور المجتمعات المختلفة قديماً للردود وكيفية الإجابات المقنعة عن المسائل المتعلقة بوجود العالم ومكانة الإنسان فيه.

وثانيها: معرفة كيف أن شعبا من الشعوب طور نظاما اجتماعيا معيناً بعباداته المختلفة وطرق حياته المتعددة. وستنصب هذه الدراسة على نموذج من النظام الاجتماعي الآشوري لأن الآشوريين هم ورثة السومريين والبابليين، ولقد حفظت لنا ثقافة هؤلاء تراثاً غنياً من الأساطير بعيداً عن التحوير وإعادة الصياغة كما حفظته من الأندراس تحت حركة التحديث وتعاقب الأجيال، فهناك أساطير آشورية وسومرية يعود أصلها إلى ألفي سنة قبل الميلاد تتطابق مع أحدث الأساطير اكتشفاً (القرن السابع قبل الميلاد) مما يدل على أن النص قد عاش وتم تداوله بحرفيته مئات السنين، وهذه الإشارة تنبهنا إلى أن هذه الأساطير هي الأولى التي خطتها يد الإنسان، لذلك فإن على أي باحث في الميثولوجيا أن يلتفت إليها قبل غيرها.

ثانياً-أسباب الاختيار:

- 1- حجم تعدد الآراء الوافر الذي تعرض له مصطلح الأسطورة، ما جعله يلقي مصيراً من التعميم والتداخل مع مصطلحات أخرى (الخرافة، الحكاية البطولية....).
- 2- إن الأساطير لون رائع من الأدب الممتزج بالتاريخ والزامات الأخلاق، لذلك لا بد من الإلمام بها لفهم معتقدات البشر، وعاداتهم وطبائعهم، وإدراك المثل والروح المتأصل لكل شعوب العالم.
- 3- قلة تأليف معاجم عربية متخصصة لإعطاء مدلولات شاملة لمعاني مصطلح الأسطورة.
- 4- قلة الجهود العربية التي بذلت في هذا الحقل (الميثولوجيا) خاصة ما يتصل بالبحث في المصادر الأم من وثائق ومدونات نصية ورقم طينية
- 6- بالرغم من أنه لا يمكن دراسة الأسطورة «إلا في سياقها الاجتماعي» إلا أن المؤلفات في هذا الجانب قليلة إن لم نقل نادرة.

هذه الأسباب هي الباعث الأقوى للإرادة في تحقيق أهداف التحصيل وإنتاج المعارف من خلال البحث المقدم.

ثالثا- الأهداف :

يعتقد الكثير أن دراسة الأسطورة لا تخرج عن كونها قصة خيالية، قوامها الخوارق و الأعاجيب التي لم تقع في التاريخ ولا يقبلها العقل، ولا داعي لإنكار مثل هذه الرؤى، فكونها خيالية لا يقبلها عقل الإنسان المعاصر لا ينفي وجودها، وأنها تناقض واقعنا لا يجد من قيمتها، ففي الأساطير نجد عقائد أصحابها ممثلة، وكذلك عاداتهم ومثلهم، وطقوسهم التعبدية وبذلك تتضح فلسفتهم في الحياة.

ورغم انحسار دور الأساطير كنظام ديني بعد ظهور الديانات السماوية؛ إلا أن تأثيرها ممتد إلى يومنا هذا، فلا تزال لها بقايا في معتقدات كل أمة حتى الأمم التي تعيش في ظل الصناعة والتكنولوجيا، هذه البقايا لا تزال مسيطرة على العادات والتقاليد والثقافة الإنسانية بوجه عام. لذلك يهدف هذا البحث إلى:

1- دعوة أهل علم الاجتماع إلى الإطلاع على أساطير المجتمعات، فمن خلالها يستطيعون أن يكتشفوا الأعراف والقيم والعادات الاجتماعية التي يتمسك بها كل مجتمع.

2- إبراز المعايير التي بواسطتها يمكن التمييز بين النص الأسطوري وغيره من النصوص.

3- إبراز دور الأسطورة في إرساء علم الاجتماع وما تفرع عنه مثل الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا، وهما العلمان اللذان يهتمان بدراسة تاريخ الإنسان الثقافي مشتملا على كافة نواحي السلوك الإنساني، على اعتبار أن المجتمعات قد عاشت وواصلت استمرارها ونموها في ظل مختلف البيئات

التاريخية، ومررت بمختلف التحولات إلا أنها لم تتحلّ كلية عن خصائصها الأولى، ومن هذه الخصائص الأساطير.

4- جعل الأسطورة- كونها مكونا أساسيا من مكونات الفكر الإنساني - مرجعا ثقافيا متميزا تنهل منه الكثير من الدراسات الاجتماعية والدينية والفكرية والتاريخية والفلكلورية.

5- إن لكل أسطورة قيمة ودلالة وجوهر، تكمن فيها أسرار ومعاني بحاجة إلى التدقيق والتمحيص والتعمق لإدراكها وفهمها، فإننا نؤكد -مع الكثير من المشتغلين العرب بمحفل الميثولوجيا - على ضرورة العودة إلى اللغة العربية القديمة بلهجاتها المختلفة لفك رموز الأساطير بعيدا عن الترجمة القاصرة التي غيبت الكثير من مراد الأساطير ومغازيها.

6- باعتبار الأسطورة - اليوم- لونا أدبيا راقيا لا يخلو من أهداف وقيم نبيلة، كما ساعدت على مر الزمن على إنشاء جيل يقدر الأديان والأخلاق، كما اعتنت بتنمية الخيال اللازم له، الذي ينمي بدوره القدرات العقلية، فإن الدعوة إلى قراءتها ولو من باب التسلية والمتعة ضرورة معرفية.

7- إبراز دور الأسطورة الأساسي في البناء المعرفي والعلمي والاجتماعي والتطور الحضاري للإنسانية.

رابعاً-الدراسات السابقة :

رغم تنوع المؤلفات في الأسطورة، إلا أنه لم نجد مؤلفا واحدا ينفرد عن دور الأسطورة في بناء النظام الاجتماعي، فهناك كتب تجمع بين دفتيها ما يعتقد أنها أساطير، وأخرى فصلت في معنى الأسطورة وهناك كتب تمزج مصطلح الأسطورة مع مصطلحات أخرى مثل الخرافة والفولكلور،....

في حين نجد مؤلفات أخرى وخاصة كتب تاريخ الأديان تصنف فيها الأسطورة مادة للأديان الوثنية. وهناك دراسات حول وظيفة الأسطورة، وأخرى حول الأسطورة وعلاقتها بمختلف الفنون، وهناك من تناول جانبا من جوانب الأسطورة مثل الفكر السياسي، أو الأدبي....

من أهم الدراسات السابقة مثل:

- إ.أ. جيمس. في كتابه الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى القديم الذي تناول فيه دراسة نشأة الأسطورة وبيّن وظيفتها في توليد الشعائر والطقوس، وفرق بين أنواع الأساطير وعرض دور كل نوع منها في وضع التصور الذهني للفرد والجماعة للرموز الثقافية الخاصة بتلك الجماعة، ودورها في توجيه السلوكيات التطبيقية أثناء القيام بالشعائر.

- فراس السواح في كتابه الأسطورة والمعنى قد درس فيه تعريف الأسطورة وأشكالها ومضامينها، ثم بحث علاقة الأسطورة بالمعارف الإنسانية كالتاريخ والعقائد والأخلاق، ومن خلال ذلك حدد جوانب من دور الأسطورة ووظيفة الرمز الذي تحمله في إعداد شخصية الفرد والجماعة المنسجمة مع النظام الاجتماعي المميز للمجتمع الذي ينتمي إليه الشخص.

- أحمد زكي الذي تناول في كتابه -الأساطير- تطور الأسطورة وكيفية إلحاق الخرافة بها في تراث الكثير من المجتمعات، كما تعرض للواقعية في مضمون الأسطورة، وأثرها في تطوير الأدب والفن واستعمال الترميز المثالي للتقديس والتدنيس القيمي لقيم الفرد والجماعة.

- أما كلود ليفي شتراوس فيرى في كتابه "الأسطورة والمعنى" أن الأسطورة إحدى وسائل الاتصال الإنسانية. فالأسطورة هي نتاج اللغة، وعناصر الأسطورة تمثل عناصر اللغة فالأصوات ليس لها أي معنى في حالة انعزالها عن بعضها، بينما يصبح لها معنى في حالة ارتباطها ببعضها

فقط. وهذا ينطبق على عناصر الأسطورة التي لا معنى في ذاتها، وإنما يأتي معناها من خلال علاقتها ببعضها، فالذي يحدد المعنى الحقيقي للأسطورة هو البناء الأساسي للأسطورة. وهذا يتفق مع خطوط النظرية البنائية العامة.

- من هنا يبرز موقع ومكانة هذا البحث في إكمال الجوانب التي لم تأخذ درجة في التعمق والتخصص من قبل الدراسات السابقة عليه، وبالاعتماد على نتائج هذه البحوث والدراسات السابقة يقدم بحثنا دراسة عن أهم دور لأهم نوع من الأساطير ألا وهي؛ الأسطورة الدينية ودورها في بناء النظام الاجتماعي في عدة جوانب منه بعدة أوجه وصور مختلفة وذلك من خلال دراسة المجتمع الآشوري نموذجاً.

خامساً- تحديد المشكلة وصياغتها:

يشكل التراث مصدراً أساسياً من مصادر الإبداع والنشاط الفكري والحضاري في الحياة الإنسانية؛ إذ لا يتحقق وجود عامل فعال لأمة من الأمم دون تواصل مع تراثها بشكل ما، وفعالية العامل تكمن في دوره في بناء النظام الاجتماعي.

ومن الملاحظ أن التراث هو القيمة الثابتة عند كل الأمم، لذلك ينهل المبدعون منه، ليعبروا - من خلاله - عن وجودهم وليقيموا الصلة بين الماضي والحاضر. لذا يعد التراث مصدراً مهماً لكل أمة من أجل الاتصال الخلاق بينائها الحضاري. من هذا المنطلق جاء اهتمام الشعوب بتراثها، ومن ثم يكون أهم عامل في التراث هو الأسطورة، و أبرز أشكال الاهتمام بالتراث من حيث إحيائه وتفعيله: هو إعادة بعث الأساطير.

فالأسطورة مُكوّن من مكونات التاريخ الإنساني، ترعرعت في حجر الإنسان منذ القدم، وتغلغلت في لبنات التراث الثقافي والوجداني والميثولوجي، لأناس الأرض عبر الأزمنة المختلفة. وهي كائن حي عابر للثقافات يطفو بأكثر من وجه إلا أن الجوهر واحد-غالبا-، إذ يعاد إنتاج الأسطورة حسب التلون البيئي والثقافي للشعوب، وفي مراحل زمنية مختلفة.

ينقسم الميراث الميثولوجي إلى تراث مكتوب وتراث شفهي، فأما المكتوب فقد وصلنا من الحضارات العالمية الكبرى، من يونانية وشرق أوسطية وشرق أقصوية. وأما الشفهية فقد أمدتنا به الدراسات الميدانية الأنثروبولوجية في بقاع الثقافات غير الكتابية القائمة اليوم. إلا أننا لا نستطيع الجزم ولا بأي درجة بمدى قدم تلك الميثولوجية التي جمعها الأنثروبولوجيين .

أما التراث الأسطوري المكتوب فقد قسمه بعض الباحثين إلى ثلاث زمر رئيسية: الزمرة الأولى ونموذجها الميثولوجيا الإغريقية ، والزمرة الثانية ونموذجها الميثولوجيا الهندوسية، والزمرة الثالثة ونموذجها ميثولوجيا الشرق الأدنى القديم ، والتي تعتبر الأكثر تعبيرا عن الفكر الأسطوري للإنسان القديم.

فالتراث الإغريقي ضم الكثير من الأساطير التي ألفها بعض المؤلفين الرومان المتأخرين من أمثال أوفيد وأبوليوس، والتي لا تستند إلى أصول قديمة بل هي من نسيج خيالهم الخصب، مما أفرغ الأسطورة من قدسيته وجعلها مجرد عمل أدبي. أما الأسطورة الهندوسية فكانت على النقيض من ذلك إذ خضعت لإعادة صياغة كهنوتية مستمرة عبر التاريخ الطويل لتطور المعتقد الهندوسي.

أما أساطير الشرق الأدنى القديم⁽¹⁾. فقد شهدت انقطاعا حادا في مسيرتها الطويلة بين ثقافة الشرق القديم وبين الثقافة الإغريقية عقب فتوح الإسكندر المقدوني.

لذلك فإنها تطرح نفسها ممثلا حقيقيا لميثولوجيا الإنسان ولمرحلة الفكر الأسطوري، ولأنها أولى الأساطير التي وضعها الإنسان بلغة أدبية عالية متماسكة تتصف بالخيال والمبررات المنطقية، وذلك بسبب تدين إنسان هذه المنطقة وحرصه على المحافظة على موروته فقد خلف لنا تركة ميثولوجية، ينبغي لأي باحث أن يلتفت إليها قبل غيرها، ويستنبط منها المعايير المرشدة لدراسة أي ميثولوجيا أخرى. ومن هذه الزمرة (أساطير الشرق الأدنى) نهل مادتنا العلمية وسنخص أساطير بلاد ما بين النهرين (السومرية، والأكدية والبابلية والآشورية).

فان أحدث النسخ الأسطورية التي ترجع لبلاد ما بين النهرين. قد وصلتنا من أواخر القرن السابع قبل الميلاد عندما اكتشف المنقبون المحدثون مكتبة آشور بانيبال المدفونة تحت ركام مدينة نينوى (عاصمة الآشوريين). والتي احتوت على عدد هائل من الرقم الطينية تحتوي على نصوص ميثولوجية وأدبية وطقسية وديوية شتى، غير أن عهد النصوص المكتشفة يعود إلى ما وراء القرن السابع بكثير، والدليل على ذلك وجود نصوص أخرى سومرية مطابقة لها يعود أصلها لألفي سنة قبل الميلاد مما يعني أن النص عاش وتم تداوله بحرفيته عبر ألفي سنة.

لكن الذي يهمنا في هذا البحث ويوافق مسيرة دراستنا هو النصوص الدينية (الأساطير الدينية) التي تتميز موضوعاتها بالجدية والشمولية وصلتها المباشرة بوجود الفرد والجماعة والعالم بأجزائه وكيته. فهي تدور حول مسائل خطيرة وأساسية مثل خلق الكون واستمراره، خلق الإنسان

(1) - المقصود به: مصر، ما بين النهرين، آسيا الصغرى، سوريا، فلسطين، الهند، إيران، إيجه، اليونان، البحر المتوسط.

ومصيره، أصول الظواهر الطبيعية وكيفية عملها، أصول النواميس الحضارية، الموت والعالم الآخر أصل المملكيّة والسلطة أصول الجماعة وتحررها. والأسطورة الدينية عندما تتصدى لمسألة من هذه المسائل الشمولية، فإنها لا تطرح موضوعها على بساط البحث والتحليل، وإنما تتقدم بحقائق لا تقبل الجدل. لأنها تتمتع بسلطة هائلة على عقول الأفراد ونفوسهم، هذه السلطة تنبع من داخل الأسطورة لا من خارجها.

لذلك فقد آمن الإنسان العراقي بوجود الآلهة على الرغم من أنه لم يرها سوى قلة قليلة من الكهنة في أحلامهم. وآمن بالحقائق التي تقدمها الأساطير، وكان الكفر برسالة الأسطورة فقداناً لكل القيم التي تشد الفرد إلى جماعته، وفقداناً للتوجه السليم في الحياة.

هذه هي الأسطورة الدينية في نظر أصحابها فكيف ينظر لها إنسان العصر الحديث. الذي يعيش في عالم فكري منظم تحكمه مناهج البحث العلمي.؟

شهد عصر النهضة انطلاقة الدراسات العلمية للأسطورة ولكن هذه الدراسات اقتصرت حتى القرن الثامن عشر على أساطير تلك العصور التي يدعوها علماء الغرب العصور الكلاسيكية، ويقصدون بها العصور اليونانية، وقد ساد الاعتقاد في هذه المرحلة بأن الأساطير الدينية ما هي إلا تحريف للوحي التوراتي.

وبعد أن اطلع الغربيون على حضارات مصر والشام والرافدين وبلاد الشرق وشعوب أمريكا وتعرفوا على أساطيرها، توافرت لديهم إمكانات القيام بدراسات مقارنة بين مختلف الشعوب. وكان الفيلسوف الإيطالي جامبستافيكو (1668-1744م) أول من أعطى الأسطورة مفهوماً تاريخياً، وبين دور مخيلة الإنسان المبدعة في تكوين الأسطورة على مراحل

متتالية، لكن آراءه لم تؤثر في عصره آنذاك. وفي عصر التنوير أنكر المفكرون الفرنسيون الدور التاريخي للأسطورة ورفضوا إعطاءها أي قيمة علمية، وعدوها قصصا طفولية ونتاج الجهل مثل الخرافة.

ومن هؤلاء فولتير ومونتسكيو وعبر عنها ماكس مولر بأنها مرض أصاب اللغة، واعتبرها آخرون قصصا للمتعة الخالصة يرويها الناس في أماسي الشتاء الطويلة، وفي شطر من رأيه يرى كلود ليفي ستراوس، أنه مهما قلبت الأساطير على اختلاف أوجهها، فيبدو أنها تظل مقتصرة على كونها لعبا مجانيا.

أما رولاند بارثيز فقد شخص لها وظيفة سلبية وخطيرة جدا حين، قال: «إن الغاية الوحيدة من الأسطورة هي تجميد حركة العالم» كما اهتمت الأسطورة بأنها نتاج صنف إنساني غير مكتمل العقل.

وفي مقابل هؤلاء الذين حطوا من قيمة الأسطورة هناك من جعل لها وظائف وأدوار؛ ففي مطلع القرن العشرين عاد الاهتمام بالأساطير بعد أن تقلص مع ازدهار نظرية النشوء والتطورات على يد الأنثروبولوجيين وعلماء اللغة، وتبع ذلك دراسات نفسية معمقة وتطوير مناهج علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والدراسات الفلسفية والتاريخية، وأكدت الدراسات الدينية أنه لا يمكن فهم الإلياذة على أفضل وجه إلا بالنظر إليها على أنها رواية لتاريخ مقدس، ولا يمكن تفسيرها حرفيا.

وكان للتفسير العقلاني للأسطورة أنصاره منذ القدم وإن تنوعت أشكاله ومذاهبه، وهي تفترض جميعها وجود منظومة محددة للفكر الإنساني نتجت منها النصوص الأسطورية، وما

التفسيرات المجازية والرمزية إلا أمثلة على ذلك، لأن المجاز قابل للتكيف تماما بعد وضوح الفكرة. وهناك باحثون كثير يعزون وجود الأسطورة إلى عامل الخوف ومنهم **دافيد هيوم**.

أما عالم الاجتماع الفرنسي **مارسيل موس**، فيرى أن للأسطورة وظيفة اجتماعية شاملة كما هو واضح من الرموز الدينية التي تشتمل عليها، وأنه لا يجوز الانتقال من أثرها في المجتمع، في حين يؤكد عالم الأنثروبولوجيا البريطاني، **برونوسلاف مالينوفسكي (1884-1942م)** ضرورة الأسطورة للمجتمع لأهمية الوظائف التي تؤديها فيه، وخاصة المجتمع البدائي، فهي تفسر العادات والأخلاق والذرائع في تلك المجتمعات ونظرتها الجمالية والدينية والمؤسسات التي قامت عليها، وقد اشتهرت هذه النظرية بالوظيفية أو النفعية ومبدأها أن لكل عادة أو تقليد أو شعيرة في المجتمع وظيفة حيوية أو نفعاً يجب إتمامه، ويرى **مرسيا إلياد (1907-1990م)** أن الأسطورة حدث ديني يروي قصة مقدسة وأحداثاً جرت في الزمن الأول، وهي تصف مختلف الانحرافات الدرامية لكل ما هو مقدس في العالم، وينفي إلياد عن الأسطورة كل ما هو غير ديني، ويدعو إلى التفريق بين الروايات الصحيحة والروايات المغلوطة في المجتمعات التي ما تزال الأساطير الحية عندها، لأن الروايات الصحيحة تحكى كل ما هو مقدس وخارق فعلاً، في حين تتحدث الروايات المغلوطة عن أشياء دنيوية وإن كانت شخصياتها مقدسة، أما الخرافات فتتحدث عن حوادث لم تستطع أن تبدل شيئاً، من الطبيعة الإنسانية وإن كان لها تأثيرها في العالم.

لقد تنوعت نظره الإنسان المعاصر للأسطورة، كما تنوعت آراؤه وذلك لأن كل واحد ينطلق من الأرضية الفكرية التي يمثلها، ومن المنهج الذي يتبعه في النظر للأساطير. وإن التقت هذه

الآراء في الميل المتأصل في الفكر الإنساني للنظر إلى القديم بمعيار الحديث أو فهم الغائب انطلاقاً من المشهود الحاضر.

في حين أن القاعدة الأهم في منهج المؤرخ للأساطير القديمة هي النظر إليها بمعزل عن الأساطير الحاضرة، ومحاولة فهمها من خلال شروطها الخاصة، بعيداً عن إسقاطات الواقع الحالي. وهنا تتولد مشكلة الدراسة القائمة على أساس؛ أن الأوائل لم يكتبوا -أصلاً- أساطيرهم لزماننا نحن، بل وضعوها رعاية للانسجام مع واقعهم تحت ظروف خاصة ببيئتهم، فمن ذلك يمكن طرح إشكالية الدراسة في صورة التساؤلات التالية:

1- هل كتب الإنسان الأول بواسطة أسطوره الدينية تاريخاً شاهداً على مراحل ووقائع دونها وحفظها بأمانة تستحق منا اليوم عناء البحث والتحليل حتى نكتشف من نصوصها الأطر التي حددها لإقامة مجتمع متحضر له نظامه الروحي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي؟ أو أن الأسطورة ظاهرة نتجت لاحقاً عن تفاعلات ونشاطات مختلفة للإنسان؟.

2- هل كان بإمكان الإنسان بالفعل أن يصل إلى المستوى الذي وصل إليه في بناء نظام اجتماعي راق متميز بمعارفه الذاتية فقط، ومن غير مدد خارجي رفعه من مستوى الممجية البدائية إلى مستوى الإنسانية المتحضرة؟.

3- ما هي بواعث قيام الأنظمة الدينية في المجتمعات وما علاقتها بالأسطورة؟.

4- كيف انتقل الإنسان من مرحلة البداوة والتنقل إلى مرحلة الاستقرار، وما صاحبها من تطور اجتماعي حضاري كبير في منطقة الرافدين، وما أثر الأسطورة الدينية في ذلك؟.

5- كيف أسست الأسطورة الدينية النظام الاجتماعي الآشوري وما هي مرتكزاته ومؤسسته؟.

6- ما هو دور الأسطورة الدينية في توجيه تحديد وسائل وغايات النظام الاجتماعي لدى المجتمع الآشوري؟.

سادسا: الفرضيات في دراسة الأسطورة:

1— الفرضية الأولى: الأسطورة ظاهرة اجتماعية إنسانية تحتاج في دراستها إلى تحديد العلة التي ولدتها وإلى تحديد الظروف والأسباب التي أدت لتطورها.

2— الفرضية الثانية: الأسطورة وسيلة اخترعها الإنسان شأنها شأن أي وسيلة؛ استخدمها للانسجام ومسايرة الظروف البيئية الطبيعية والإنسانية، فدراستها تطلب دراسة بيئة الجماعة التي أنتجتها.

الفصل الثاني

تحديد مفاهيم الدراسة

أولاً: مفهوم الأسطورة

1 - مفهوم الأسطورة لغة

2 - الأسطورة اصطلاحاً

ثانياً: مفهوم الدين

1 - الدين لغة

2 - الدين اصطلاحاً

ثالثاً: مفهوم الأسطورة الدينية

رابعاً: مفهوم النظام الاجتماعي

1 - النظام الاجتماعي لغة

2 - النظام الاجتماعي اصطلاحاً

أولاً- مفهوم الأسطورة :

1- مفهوم الأسطورة لغة

إن مصطلح الأسطورة له جذوره اللغوية ومعانيه في اللغة العربية.

ففي لسان العرب باب السين:

سَطَرَ: السَطْر، الصف من الكتاب، أو الشجر أو النخل ونحوها، والجمع من كل ذلك أسطر وأسطار وأساطير.

والسَطْر: الخط والكتابة، قال الزجاج في قوله تعالى: «**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا**» الفرقان الآية 5 ومعناه سطره الأولون وواحد

الأساطير أسطورة. وعند ابن كثير أساطير الأولين: كتب الأولين

وسطر علينا: جاءنا بالأساطير، يقال سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها، وتلك الأقاويل الأساطير.

وجاء في معجم الصحاح باب السين مثل ذلك، أضاف عليه الأساطير هي الأباطيل.

وفي القاموس الجديد الأسطورة هي الحكاية التي لا أصل لها واقعي.

وهكذا فإن المعاجم العربية لم تعط مدلولاً حقيقياً لكلمة أسطورة، فالأساطير هي الأحاديث التي

لا نظام لها. وهي الأباطيل والأحاديث العجيبة، وهي الحكاية التي لا أصل لها.

إلا أن هذه المعاني لكلمة أسطورة في العربية نجد ما يقاربها في اللغات الأوروبية فكلمة

Myth في اللغة الإنجليزية أو الفرنسية وغيرهما مشتقة من الأصل اليوناني **Muthos** وتعني «حكاية شعبية أو أدبية تضم كائنات خارقة وإجراءات خيالية التي تنقل الأحداث التاريخية»⁽¹⁾ وكان «أفلاطون أول من استعمل تعبير **Muthologia** بمعنى "القول عن" أو "الأخبار عن" أو بمعنى "القصص"⁽²⁾ ومنه جاء تعبير **Mythologie** المستخدم في اللغات الأوروبية الحديثة. وهنا يجب التمييز بين مصطلح الميثولوجيا ومصطلح الأسطورة **Myth**، فالأول يشير إلى شيئين.

1- دراسة الأسطورة ذاتها، دراسة علمية منظمة.

2- مجموع الأساطير التي تميز حضارة ما. كالميثولوجيا المصرية أو اليونانية أو البابلية.

في حين أن **MYTH** تشير إلى أسطورة بعينها.

وفي لغات الشرق القديم كالأكدية والحثية فلا نعثر على مصطلح خاص ميز به أهل تلك الحضارات الحكاية الأسطورية عن غيرها... وهنا تكمن المشكلة «فالقدماء أنفسهم لم يعملوا على تمييز النص الأسطوري عن غيره، ولا هم دعوه باسم خاص يساعدنا على تمييزه بوضوح بين ركام ما تركوه لنا من حكايات وأناشيد وصلوات وما إليها»⁽³⁾.

وللتوضيح نسوق مثالا على ذلك: المثال السومري «فقد كان للسومريين مكتبات يحفظون فيها الرقم الفخارية، تدعى بيوت الألواح وكان لهم نظام للأرشيف، يساعد خازن بين الألواح على جرد محتويات وخدمة المستفيدين منه... حيث نجد في مكتبة الملك آشور بانيبال النصوص وقد حفظت إلى جانب بعضها البعض دون عناية بفرزها إلى مجموعات، وفق موضوعاتها، وحيث

⁽¹⁾ - Petit Larousse en Couleurs- Librairie Larousse, 1980, P 614.

⁽²⁾ - محمد عباس أفلاطون والأسطورة دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع سنة الطبع، 2008، ص 11.

⁽³⁾ - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، ص 8.

نصوص الحكم والوصايا، إلى جانب الصلوات والتراتيل إلى جانب الأساطير... وإليكم بعض العناوين المدرجة في أحد فهارس المكتبات السومرية.

1- إنليل واسع الإدراك وهو بداية ترتيلة مرفوعة إلى الإله إنليل.

2- السيد إلى أرض الأحياء وهو بداية نص جلجامش وأرض الأحياء.

3- إلى أين كنت تذهب وهو مأخوذ من السطر الأول لنص أيام الدراسة الذي يقول يا ابن المدرسة إلى أين كنت تذهب في الأيام القديمة؟

4- الفلاح في سابق الأيام، وهو مأخوذ من بداية رسالة تتضمن توجيهات موجهة من فلان لابنه.

5- من الأعلى العظيم إلى الأسفل العظيم، وهو بداية أسطورة: هبوط إنانا إلى العالم الأسفل» (1).

فالملاحظ لهذه العناوين يرى كيف تم إقحام الأساطير إلى جانب النصوص الأخرى كالمدرسة والتعليمات الزراعية دون إعطاء خصوصية لأي منها، ورغم ذلك «فإن الأقدمين كانوا يميزون بدقة بين القصص الحقيقية التي ترتبط بالمعتقدات الدينية (الأساطير) والقصص الزائفة ذات المضمون الأدبي البحت» (2).

2- الأسطورة اصطلاحاً :

لما كانت الأسطورة واقعة ثقافية شديدة التعقيد كان من الصعب علينا إيجاد تعريف متفق عليه يكون في متناول المتخصصين والمهتمين والدارسين على السواء. أضف إلى ذلك نسبة التشابه

(1) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، 1987، ص9.

(2) - المرجع نفسه، ص14.

بين مصطلح الأسطورة ومصطلحات أخرى ، كان لزاما علينا أن نقف مطولا مع هذا المصطلح
بغية توضيحه وتحديدده بدقة و قدر الإمكان.

جاء في قاموس علم الاجتماع أن الأسطورة هي: «تفسير أو قصة رمزية تروي حادثة غريبة، أو
خارقة للطبيعة، توجد في ثقافة فرعية، وتتميز الأسطورة بتناقضها، وانتشارها على نطاق واسع،
وتأثيرها العميق نتيجة ما تنطوي عليه من حكمة، وفلسفة وإثارة وإلهام»⁽¹⁾ وبقراءة بسيطة لهذا
التعريف نجد أنه ليس خاصا بالأسطورة بل تشترك فيه أيضا الخرافة والملحمة، والحكايا الشعبية...
لذلك سنقف مع تعريف آخر:

فقد اهتم الباحثون في القرن التاسع عشر بأصل الأساطير إلا أن علماء الأنثروبولوجيا تجنبوا
البحث فيه، لان العديد منهم يعتقدون أن الأسطورة جزء من نسق اجتماعي، يتكون من عناصر
معاصرة فنجد برونوسلاف مالينوفسكي مثلا: حاول أن يضع تعريفا للأسطورة من خلال
استخلاص طبيعتها ووظيفتها في المجتمعات البدائية: «ليست الأسطورة تفسيرا يراد منه تلبية فضول
علمي، بل هي حكاية تعيد الحياة إلى حقيقة أصلية، وتستجيب لحاجة دينية عميقة، تطلعات
أخلاقية وواجبات، وأوامر على المستوى الاجتماعي، بل وحتى متطلبات عملية في الحضارات
البدائية، تملأ الأسطورة وظيفة لا غنى عنها تفسر وتبرر وتقنن المعتقدات، تحامي عن المبادئ
الأخلاقية وتفرضها، تضمن فعالية الاحتفالات الطقسية وتنتج قواعد عملية لاستعمال
الإنسان»⁽²⁾.

(1) - محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع دار المعارف الجامعية، ص296.

(2) - محمد الخطيب، الإثنولوجيا، دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، ص194.

فالأسطورة مكون جوهري في الحضارة الإنسانية، ليست خيالا بل حقيقة قائمة بذاتها يلجأ إليها الإنسان لتعينه على كشف حقيقة معنى الطقوس والأعمال التي يؤديها على الصعيد الأخلاقي، وبيان الأسلوب الذي ينبغي عليه أدائه به.

وإذا كان **مالينوفسكي** قد تعرض إلى الأسطورة بالنظر إلى جانبها الوظيفي فإن **مرسيا إلياد** تناولها باعتبارها «أحداثا تاريخية حدثت في الزمن السحيق» فالأسطورة تروي تاريخا مقدسا، تروي حدثا جرى في الزمن البدائي، الزمن الخيالي، هو زمن البدايات؛ فالأسطورة تحكي لنا كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل مآثر إجتاحتها الكائنات العليا، لا فرق بين أن تكون هذه الحقيقة كلية كالكون أو جزئية كأن تكون جزيرة أو نوعا من النبات، أو مسلكا يسلكه الإنسان أو مؤسسة⁽¹⁾، فلا تزيد الأسطورة عن كونها حكاية خلق تروي لنا كيف كان إنتاج شيء ما وكيف كانت بدايته أما أشخاصها فهم كائنات عليا (آلهة). من هنا تأتي أهمية ميثولوجيا التكوين في أديان الشعوب وعلو شأن أسطورة الخلق في النظم الميثولوجية، لذلك كانت أسطورة التكوين البابلية هي سيدة أساطير تلك الثقافة « لم يكن هناك سماء في الأعلى، ولم يكن هنالك أرض في الأسفل، لم يكن هناك سوى آلهة العماء القابعة وراء الزمن والمعارضة لأية حركة أو فعل، ثم جاء الإله الخالق مردوخ ليبتدئ سيرة حياته مع سيرة حياة الكون الذي أخرجه من لجة العماء البدائي»⁽²⁾.

(1) - مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة ترجمة نهاد خياطة، دمشق 1987، ص 10-11.

(2) - فراس السواح، دين الإنسان، دار علاء الدين للطباعة والنشر والترجمة، ص 60.

ولذلك أيضا تتصدر أسطورة التكوين التوراتية الصفحة الأولى من كتب العهد القديم «ففي البدء خلق السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية على وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف فوق وجه المياه»⁽¹⁾.

وكانت الأسطورة بمثابة جواب عن السؤال كيف خلق ذلك الشيء؟ وبالأسطورة أيضا «يمكن التعرف على أصل الأشياء ليتمكن الطقس الديني من إعادة تكراره، ذلك أن الطقس يقوم بإعادة تكرار حدوث الخلق الذي يمكن الإنسان من الاتصال بالآلهة وبزمن الخلق الأول»⁽²⁾.
وفي مقابل هذا نجد ماريت يقول إن «الأسطورة ليست بحثا عن الأسباب وإنما هي كفالة للدين وضمان وليست غايتها أن ترضي الفضول بل أن تؤكد الإيمان»⁽³⁾.

فالأسطورة وسيلة توضح الإيمان وتقويه، وهي تضمن فعالية الطقس الذي تعيش فيه من جديد باعتبار أن الأسطورة هي الجزء المحكي من الطقس.

وهناك تعريفات أخرى للأسطورة لكنها بالغت في بعدها عن جوهر الأسطورة مثل ما ذهب إليه ماكس مولر - وهو من أكبر المشتغلين بالأساطير - إلى أنها «تصوير فترة من الجنون كان على العقل البشري أن يجتازها»⁽⁴⁾.

(1) - المرجع نفسه، ص 60.

(2) - عمر محمد صبحي عبد الحى الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص 35.

(3) - إ. أجيمس، الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى القديم، ترجمة يوسف شلب الشام، دار التوحيد للنشر، الطبعة الأولى 1998، ص 21.

(4) - أحمد كمال زكي، الأساطير، الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع 1997، ص 41.

هذا التنوع في النظر إلى الأساطير، لا يبرره إلا الغموض العميق الذي يحيط بهذا الموضوع. إضافة إلى ذلك أن الاستخدام العلمي لكلمة أسطورة قد يسبب سوء فهم آخر بسبب أن الكلمة تعني في الأوساط الشعبية باطل أو خرافة.

وفي الأخير سوف نعرض تعريفاً آخر نراه أكثر دقة وتحديد وهو تعريف فراس السواح.

فالأسطورة وهي ظاهرة من أهم ظواهر الثقافة الإنسانية لها أجناس أدبية مشابهة لها من حيث الشكل مثل الخرافة والحكاية البطولية.... -والتي سنتناولها بالتفصيل في الفصل الرابع- وحتى نميز النص الأسطوري من غيره فقد وضع فراس السواح معايير لذلك قبل أن يقدم تعريفه للأسطورة.

المعيار الأول:

من حيث الشكل: الأسطورة هي قصة، وتحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، وما إليه، وغالبا ما تجري صياغتها في قالب شعري ساعد على ترتيلها في المناسبات الطقسية، ويزودها بسلطان على العواطف والقلوب.

المعيار الثاني: يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة للجماعة كما هو الشأن بالنسبة للأساطير السومرية التي حافظت على صيغتها الأصلية قرابة الألفي سنة من الألف الثالث قبل الميلاد إلى الألف الأول قبل الميلاد إلا أن هذه الخاصية لا تعني الجمود أو التحجر لأن الفكر الأسطوري يجدد أساطيره دائما، إما بالتخلي عن الأساطير التي فقدت طاقتها الإيحائية أو تعديلها.

المعيار الثالث: لا يعرف للأسطورة مؤلف معين، لأنها ليست نتاج خيال فردي أو حكمة شخص يعينه، بل إنها ظاهرة جمعية تعبر عن تأملات الجماعة، وحكمتها، وخلاصة ثقافتها، ولا

يمنع هذا الطابع الجمعي أن يقوم الأفراد بإعادة صياغة الحكايات الأسطورية ، وفق صيغة أدبية تتماشى وروح عصرهم. لذلك لا تعتبر محاورات أفلاطون أساطير، وان أطلق عليها هذا المصطلح لأنها لا تعبر عن تجربة جمعية مشتركة.

المعيار الرابع: يلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية في الأسطورة فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكتملا لا رئيسيا.

المعيار الخامس: تتميز موضوعات الأسطورة بالجدية والشمولية فهي تدور حول المسائل الكبرى التي تعن دوما على عقل الإنسان مثل: الخلق والتكوين، وأصول الأشياء والموت والعالم الآخر...

المعيار السادس: ليس للأسطورة زمن ,أي أنها لا تقص عن حدث جرى في الماضي وانتهى، بل عن حدث ذي حضور دائم. فزمانها والحالة هذه زمن مائل أبدا لا يتحول إلى ماض، والأحداث التي تقصها الأسطورة هي أحداث حقيقية، يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصدق روايتها إيمانا لا يتزعزع، فالإله تموز (إله الخصوبة) الذي قتل ثم بعث إلى الحياة إنما يفعل ذلك في كل عام، إذ يقتل في الصيف (فيكون الجفاف) ويبعث في الربيع فتصبح الأرض مخضرة. وهذا يتجدد في كل عام والإله مردوخ أو مردوك (إله بابل) الذي خلق الكون ونظمه في الأزمنة المقدسة الأولى إنما يفعل ذلك في كل عام ومع بداية السنة الجديدة، حيث يقوم بإعادة خلق الكون وتجديده. وعندما لا يكون للحدث الأسطوري هذا الطابع الدوري المتكرر الواضح ، فإن مضمون الأسطورة يعبر عن حقيقة أزلية متخللة في حياة البشر، لا يطاها تغيير، فأسطورة خلق الإنسان من تربة الأرض

ممزوجة بدم إله قتيل هي تأسيس لفكرة الطبيعة المزدوجة للإنسان وتكوينه من عنصر مادي وآخر روحي.

المعيار السابع: وهو المعيار الأخير. سطوة الأسطورة وسلطتها على عقول الناس ونفوسهم، ومؤيدات هذه السلطة تنبع من داخل الأسطورة لا من خارجها وهي عندما تتصدى لمسألة من المسائل الشمولية، فإنها لا تطرح موضوعها على بساط البحث والتحليل وإنما تتقدم بحقائق لا تقبل الجدل. فسطوة الأسطورة التي تمتعت بها في الماضي لا يدانيها سوى سطوة العلم في العصر الحديث، فنحن اليوم نؤمن بوجود الجراثيم وبقدرتها على تسبب المرض سواء رأيناها بالمجهر أم لا، وبأن الكون مؤلف من مليارات المجرات... الخ، وذلك لأن العلم قد قال لنا ذلك، وفي الماضي آمن الإنسان القديم بكل العوالم التي نقلتها له الأسطورة، مثلما نؤمن وبدون نقاش بما ينقله لنا العلم والعلماء، وكان الكفر بمضامينها كفرا بكل القيم التي تشد الفرد إلى جماعته وثقافته وفقدانا للتوجه السليم في الحياة.⁽¹⁾

فبالاعتماد على المعايير السابقة يمكن أن نصل إلى تعريف للأسطورة يمهّد الطريق أمام الباحث في الميثولوجيا ويزيل كل لبس حول المصطلح:

فبالأسطورة هي: «حكاية مقدسة مؤيدة بسلطان ذاتي، وذات مضمون عميق يشف عن معان ذات صلة بالوجود والكون وحياة الإنسان». ولا نعني بالقدسية هنا تلك الصفة التي يتم أسباغها على كائنات وموضوعات دينية فقط، بل ذلك الإجلال والتعظيم الذي تستثيره الأسطورة بسبب وضعها المتميز بحق.

(1) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ودين الإنسان ومقدمة كتاب الأساطير الطقوس في الشرق الأدنى بتصرف.

ونقصد بالسلطان الذاتي المعيار الأخير سطوة الأسطورة وسلطتها على عقول وقلوب الناس.

ثانيا- مفهوم الدين :

1 - الدين لغة:

الدين : بالكسر: العادة والشأن ودانه، يدينه، دينا بالكسر أذله واستعبده، فدانه وفي الحديث

(الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت)

والدين: أيضا **الجزاء والمكافأة**: يقال دان يدينه دينا أي جزاه ، يقال كما تدين تدان أي كما

تجزى تجازى بفعلك، وبحسب ما عملت. وقوله تعالى: «أنا لمدينون» أي لمجزيون محاسبون ،ومنه

صفة الديان في صفة الله تعالى .والمدين العبد. والمدينة: الأمة كأنهما أذهما العمل.

والدين : أيضا الطاعة نقول:دان له يدين دينا أي أطاعه ومنه الدين.

(مختار الصحاح، باب الدال).

الدين: جمعه الأديان، والدين: الجزاء كقولك دان الله العباد بدينهم يوم القيامة أي يجزيهم (العين-

باب الدال والنون).

وفي التحقيق اللغوي لكلمة الدين نجده يعني:

أ-الحاكمية والسلطة العليا.

ب- الطاعة والإذعان لتلك الحاكمية.

ج-النظام الفكري والعملية المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية.

د- الجزاء المترتب عن الطاعة أو عدمها». (1)

(1) - مراد زعيمي، النظرية العلم اجتماعية برؤية إسلامية، رسالة دكتوراه 1997، ص228.

2- الدين اصطلاحاً:

أن الدين من الظواهر التي يصعب وضع مدلول محدد لها، وهذا يرجع إلى العديد من

الاعتبارات:

- «صعوبة شمول تعريف للدين على كل المجتمعات الإنسانية، رغم اختلاف ظروفها.

- عدم الاتفاق من جانب العلماء على ماهية الدين البدائي، وهذه التفرقة بينه وبين غيره من

الأديان، شكل صعوبة بالغة لوضع تعريف محدد للدين.

- هذا إضافة إلى أن ظاهرة الدين تناولها كثير من العلماء في مختلف التخصصات»⁽¹⁾.

لذلك نجد أن كل عالم قدم تعريفاً بحسب تخصصه.

1- تعاريف الأنثروبولوجيين:

تايلور: الدين هو الاعتقاد بوجود كائنات روحية⁽²⁾.

«ماكس مولر: الدين: هو محاولة التعبير عما لا يمكن تصوره والتطلع إلى الله باعتباره الكمال

المطلق اللاهائي.

فريزر: الدين: هو الاعتقاد في قوة غيبية غير مشخصة.

(1) - سامية الخشاب، دراسات في الاجتماع الديني، الكتاب الأول، دار المعارف، الطبعة الأولى 1988، ص21.

(2) - سامية الخشاب، مرجع سابق، ص22.

رفيل: الدين: هو توجيه الإنسان لسلوكه، وفقا لشعوره بالصلة بين روحه وبين روح خفية، يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر الكائنات الأخرى ويحاول أن يكون على صلة دائمة بها»⁽¹⁾.

2- تعريفات الفلاسفة:

«الدين عند كانت: هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية سامية تعريف شاتيل: الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق.

هاربرت سبانسر: تعبر الأديان عن اقتناع ضمني بأن وجود العالم بما فيه وبما يحيط به، يعتبر شيئا غامضا يتعذر تفسيره.

3- تعريفات علماء الاجتماع:

احمد الخشاب: يرى أن الدين هو مجموعة من الظواهر الإعتقادية والعملية التي تتصل بالعالم المقدس أو تنظيم سلوك الإنسان حيال هذا العالم»⁽²⁾.

الدين عند ملثون بنجر: «هو نسق من المعتقدات والممارسات التي بواسطتها تكافح جماعة الأفراد المشكلات المطلقة للحياة الإنسانية»⁽³⁾.

«أما دور كايم: فالدين عنده عبارة عن نسق موحد ومتكامل يشتمل على العقائد والممارسات المتصلة بالأشياء المقدسة، تلك العقاد والممارسات تمارس في مجتمع صغير أخلاقي يسمى الكنيسة.

(1) - نبيل محمد توفيق السمالوطي، الدين والبناء الاجتماعي، الجزء الثاني، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الأولى 1401هـ-1981م. صص 24، 25.

(2) - مراد زعيمي، نظريات علم الاجتماع الديني، مجموعة محاضرات للدراسات العليا، 2006م، 2007.

(3) - سامية الخشاب، دراسات في الاجتماع الديني، الكتاب الأول، دار المعارف، الطبعة الأولى، 1988، ص 24.

دور كايم ينظر إلى الدين على انه نسق مركب من الأساطير والعقائد أو المذاهب والطقوس والشعائر. ويتكون من قسمين:

العقائد: وهي عبارة عن حالات فكرية أو تصورات ذهنية.

والعبادات: وهي طرق عملية للسلوك، يقوم بها الإنسان حيال الأشياء المقدسة»⁽¹⁾.

وجاء في قاموس علم الاجتماع:

الأديان: «هي انساق للمعتقدات والممارسات».

والمعتقدات الدينية: هي تفسيرات أو تأويلات للخبرة المباشرة بالرجوع إلى البناء المطلق للعالم،

والى القوة فوق الطبيعية التي تسيطر على الكون وظواهره.

والممارسات: تتمثل في سلوك الدين، وهو سلوك مقدس، وطقوس تفرض على الشخص ممارسات

مقننة تحدد علاقة الشخص بالقوة العليا⁽²⁾.

ما يلاحظ على هذه التعريفات:

إن كل هذه التعريفات للدين تعبر عن عقائد أصحابها واتجاهاتهم لذلك أهملوا المصدر

الرباني (الوحي) للدين. وكلها تشترك في أن الدين يتكون من ثلاثة عناصر: عقائد، شعائر

وطقوس، عادات وتقاليد وأعراف.

من تعريفنا للدين وللأسطورة نصل إلى تعريف:

(1) - محمد الخطيب، الاثنولوجيا، دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علماء الدين للنشر والتوزيع، ص25.

(2) - محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، ص382.

ثالثا- مفهوم الأسطورة الدينية :

يعرفها زكي أحمد بدوي: «بأنها المعتقدات المشبعة أو الحملة بالقيم والمبادئ التي يعتنقها

الناس، ويعيشون بها أو من أجلها» (1).

فكل مجتمع يرتبط بنسق من الأساطير، يعبر عن التصورات الفكرية المعقدة التي تتضمن في الوقت

نفسه كل نواحي النشاط الإنساني.

ويعرفها فراس السواح:

«الأسطورة الدينية: هي التي ترتبط بنظام ديني معين، وتتشابك مع معتقدات ذلك النظام وطقوسه

المؤسسة، وهي تفقد كل مقوماتها كأسطورة إذا انهار النظام الذي تنتمي إليه وتتحول إلى حكاية

دنيوية تنتمي إلى نوع آخر من الأنواع الأدبية الشبيهة بالأسطورة؛ مثل الحكاية الخرافية والقصة

البطولية، وقد تنحل بعض عناصرها في الحكاية الشعبية» (2).

أما مفهومنا:

«الأسطورة الدينية تعني نظام التصورات التي تخلق الأفكار التي تتحول إلى دستور يهتدي به

الإنسان في حياته الاجتماعية».

نذكر نموذج عن الأسطورة الدينية.

(1) - زكي احمد بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية انجليزي، فرنسي، عربي، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة الجديد،

مادة أسطورة، ص244.

(2) - فراس السواح، دين الإنسان، دار العلاء للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، الطبعة الثانية، ص58.

- من أجل الخلق... نشبت معركة السماء: (1)

لم يكن هناك سوى «إيسو» المحيط الأزلي... و«تيامات» المياه المالحة.. لا سماء ولا أرض.. لا آلهة ولا بشر... لا شيء من ذلك أبدا سوى الفضاء المحيط... أبى كل شيء... والمياه الممتدة إلى مالا نهاية، بكل ما فيها من اضطراب وفوضى، تضرب كلها الأطناب، وتخرج من بعد كل شيء حي... .

ولم تكن المياه قد تشكلت بعد في محيطات وبحار، أو بحيرات وأنهار، بل كانت كلها شيئا واحدا، واسعا إلى غير حدود، عميقا إلى اللاهائية، أما المستقبل، فما كان يبدو منه شيء قط... لا شيء سوى ظلمة أخرى حالكة... أشد سوادا من أعماق الليل نفسه.

وتعاقبت الأزمان، حتى جاء زمن اختلط فيه الماء بالفضاء، ومن اختلاطهما خرجت أشياء أخذت تنمو وتتخذ لها أشكالا عديدة غريبة، ثم ظلت ترتفع حتى استقرت في أعلى... وكان منها كل آلهة النور...

وأطلت «تيامات» إلى المخلوقات الجديدة وملاها الفرع.. فما كانوا قط من طينتها، ولا تشكلوا أبدا بأشكالها، فهي لم تكن تعرف في حياتها سوى الظلام والفوضى والاضطراب، أما الذين يعيشون في أعلى... فلا يريدون غير النور والنظام والاستقرار، وكان هذا كله عكس ما تريد... بل كان هذا كله أول أسباب الحقد والغضب والثورة على آلهة النور...

وقررت «تيامات» أن تتلخص من المخلوقات الجديدة وأن تشن عليهم حربا لا هوادة فيها قط.

(1) - سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية 2002م، ص 65.

وظلت تيامات تعمل بلا انقطاع.. فمن جوفها جاءت الوحوش المخيفة المفترسة وانطلقت الثعابين المهولة ذات السم... وعلى سطح الماء برزت رؤوس الثنانيين، بشعة تثير الرعب وخرجت الكلاب مفترسة لا مثيل لوحشيتها، والعقارب مخيفة سوداء كالمردة، ومن كل مكان انطلقت حيوانات أخرى كسيول شريرة مجنونة، تتحرك تحت إمرة الوحش «كنجو» العملاق، الذي وعدته تيامات بالزواج وإعطائه ملك كل شيء، إذا تغلب على آلهة النور، وسحقهم بذراعه القوي الجبار.

وفوجئ الآلهة بعدوان تيامات، وكان أول من عرف نواياها هو الإله «آي» الذي ساق الخبر إلى الإله «أنصار»، وعجب هذا لموقف تيامات، وامتلاً قلبه حنقا وسخطا، يختلط بالخوف والرعدة مما قد يجلب بمجتمع الآلهة، وانطلق أنصار إلى «الإله أونو» فكلفه الذهاب إلى تيامات يسألها عن سر تحديها للآلهة.

وانطلق أونو إلى مملكة تيامات..

غير أنه ما كاد يقترب، حتى نهض له «كنجو».. الوحش المارد المستلقي إلى جوار تيامات، وهاجمه في شدة وعنف وجنون وتوقف أونو، ثم حرك قدميه إلى الخلف، ثم دار ظهره.. ثم ولى الأدبار هاربا يجري في مواجهة الحيوان الصاحب المهول..

وتوالت مواكب الآلهة واحدا في أثر الآخر، لمقابلة تيامات.. ولكن أحدا منهم لم يستطع الوصول إليها أو مناقشتها.. ولا عرف أحد منهم كيف يبحث معها سر ذلك الغضب العنيف.

وجلس الجميع ذات يوم يبحثون الأمر، وكان بينهم الإله «مردك» الذي لم يكن قد جرب حظه مع تيامات من قبل، ومن خلال الفشل الذي مني به الجميع، أطلوا إلى «مردك» وطلبوا منه أن ينزل الآلهة المتوحشة، وبغير ما خوف انحنى لهم مردك...

وقد قبل التزال، بشرط أن يقر له الجميع متى انتصر بأنه هو الأقوى.. ولا أحد أقوى منه.

ولم يكن أمام آلهة النور بد من القبول.. ومنح مردك السلطة السماوية الكاملة ليكون له حكم الكون كله..

أراد مردك قبل أن يمضي لمصارعة تيامات، أن يجرب ما لديه من فنون القوة، وأتى الإله برداء طويل القامة أمام كل الآلهة.. وتلا بضعة تراتيل لم يكدها حتى اختفى الثوب وتلاشي. وأخذ بالآلهة العجب وطلبوا منه أن يعيد الرداء كما كان.

وعاد مردك يتلو تراتيله فإذا الرداء يعود، ويمتد في نفس المكان الذي كان قد تلاشى فيه.

واقنع مردك بان أحدا من الآلهة لم يعد له مثل نفوذه وسلطانه، فقرر البدء في رحلة الانتقام.

وانتفض مردك وهو ينهض ليبدأ الصراع الجبار، فبدأ راتعا وهو يتحرك ومن أمامه تبرق البروق ومن فوقه ترعد الرعود، والقوس الضخم فوق ظهره، والرمح الثقيل في يده، والشبكة الهائلة التي قرر أن يصطاد بها الوحش كنجو الرهيب يجرها خلفه، لقد كان الإله المنتقم قد أعد عدته للكفاح، ولم يعد هناك سوى أن يلتقي بروح الشر في جسد تيامات..

واستمر الإله مردك يقود مركبة القدر ليصل إلى حيث تجري المعركة.. وعندما وجد أنه قد اقترب من المكان، نطق كلمة واحدة، فإذا ريح مروعة تجري أمامه، وإذا الريح تتحول فتصير عواصف

وزوابع وأعاصير، تتجمع كلها لتكون سلاحا في يد مردك، سلاحا أقوى من أي سلاح يمكن أن
يحملة إله..

وأطلت الحيوانات المهولة فإذا كل شيء قد انقلب، وإذا نور يشع من خوذته يخطف الأبصار،
فهرعت تحتفي في أعماق الظلمة، وأفواهاها من الخوف ترسل الزبد.. واستمر مردك، مصحوبا
بكل دعوات آلهة السماء، في طريقه المرسوم.

وبلغ مملكة تيامات، وأطل فإذا وحش مهول في شكل تين مخيف، يحاول النهوض من استلقاءه،
ومن عينيه ينطلق بريق مخيف، ومن منخاريه يندلع لظى اللهب وفتح التين فمه فإذا به كجهنم،
النار تغلي فيه، والأصوات المرعبة ترعد وتدوي ولا تسكت أبدا..

وتوقف مردك في مكانه، وزعق يخاطب تيامات من بعيد.. ويطلب منها أن تجنح إلى السلم، وتبعد
عن رأسها فكرة العدوان.

وقهقهت تيامات وهي تمتر، ثم سلطت في سرعة على عدوها أقوى ما عرفته من تعاويد السحر
وأشدها أثرا.

ولكن مردك كان قد أعد العدة لأبعاد السحر عنه.. وفي لحظة، رفع شبكته الهائلة وألقى بها في قوة
إلى حيث وقفت تيامات.. واندفعت الآلهة المهولة إلى الخلف، ولكن الشبكة أمسكتها وجذبها إليه
إليه ثم أطلق على فمها ريحا صرصر عاتية.

ودخلت الزوبعة عنيفة بين فكي تيامات.. واخترقت الحلقوم لتدخل في بطنها الذي ظل
ينتفخ وينتفخ.. وعندما بلغ آخر درجات الانتفاخ، رفع مردك رمحه الضخم وطعن البطن المنتفخ.
فانفجر في صوت صاحب كالرعد، وسقطت تيامات ميتة.. عندما انتهى مردك من قتل تيامات،

وقف فوق جسدها، ثم قطع قلبها الشرير فألقى به في الفضاء الأسود، ثم تحول إلى التنين الهائل فقضى عليه.. أما وحوشها الأخرى، وتوابعها السود، فقد أخذوا يصرخون وهم يحالون الفرار، ولكنه لم يمهلهم بل أخذ يلقي عليهم شبكة تصطادهم واحدا في أثر آخر ووقعوا كلهم في الأسر. وانحنى مردك على جثة التنين فأخذ منها حبوب القضاء والقدر التي أعطتها له تيامات المذبوحة، تلك الحبوب التي تمنح النفوذ والسلطان - لكن من يحملها - على المصائر والأقدار. وحملت رياح الجنوب دماء تيامات إلى أماكن سرية مجهولة، حين كان مردك قد انحنى من جديد على جثتها، وشقها جزأين مستطيلين، رفع احدهما ليكون السماوات.. وخفض الآخر ليكون الأرض..

وعندما انتهى مردك من رفع السماء، نثر على صفحتها الكواكب لتضيء، ولتجري في طريق منتظم مرسوم.

وعندما أضاء مردك السماء.. جعلها مكانا لإقامة الآلهة «أونو بعل آي» أما الآلهة الآخرون فقد قسم عليهم الكواكب، ليكون كل كوكب بيتا لآله، ثم قسم السنة وجعل لكل شهر ثلاثة كواكب، كما جعل لإله القمر حكم الليل وإضاءته، ومنحه كل شهر يوما يستريح فيه، أما الشبكة الهائلة التي صحبته في معركته مع تيامات فقد جعل لها كوكبا ومعها قوس.. وأما الرياح التي ساعدته في القضاء عليها، فقد جعل لكل منها كوكبا جديدا.

وإذ انتهى مردك من إقرار كل إله فوق كوكبه، وضع نفسه هو الآخر في كوكب كان أكبر من الكواكب الأخرى وأضخم.. وجعله المصدر الرئيسي للنور في صفحة السماء، غير أن مردك لم

ينس الأرض عندما كان يرفع صفحة السماء.. فقد كانت الأرض التي وضعها في حاجة هي الأخرى إلى معجزة.

وأطل مردك وهو يفكر، لقد كانت الآلهة في حاجة إلى من يصلي لها ويعبدها، وأذن.. فلتكن المعجزة هي خلق الإنسان.. وانحنى مردك على الأرض وشرع يعجن التراب بدمائه، ويصنع من الطين ناسا تقوم على خدمة الآلهة والصلاة لهم وعبادتهم وهكذا خلقت البشرية..

عمرت الأرض بالمخلوقات الجديدة وطفق البشر يتزاوجون ويتناسلون، وقيمون الصلاة للآلهة التي خلقتهم وسوت لهم الأرض وقدمت لهم النور من السماء..، ولكن الأمر لم يكن ليستمر طويلا على منوال واحد.. فإذا القوم كلما ازداد عددهم تنافروا وتنازعوا، وإذا الصلوات تقل والعبادة تنهار، والشر يدخل كل يوم من حيث خرج الخير.. وأصبح الخلق غير الخلق.. والناس غير الناس، وظهرت على الأرض سلسلتان من البشر تسيران في خطين متوازيين.. إحداهما لا تزال متصلة بالآلهة.. أما الأخرى فقد قطعت كل صلاتها بهم، ولم يعد أمام أصحابها من هدف سوى الوصول إلى اللذة من أي طريق.

في هذا النص الأسطوري نلاحظ الأسلوب الأسطوري الذي تم بواسطته تصوير القضايا الكبرى بصورة رمزية، تبهر العقل وتدهشه لتضمن هذه الأسطورة معان عظيمة عن خلق الكون، وخلق السماء والأرض وخلق الإنسان والنبات والحيوان وتعتبر هذه الأسطورة من أهم أساطير الخلق وأجملها على الإطلاق ولقيت كثيرا من الاهتمام والدراسة من قبل علماء الميثولوجيا الذين اعتبروها أحد الوثائق الهامة في دراسة تاريخ الفترة التي كتبت فيها، على أساس أنها تخبرنا عن

تنظيم آلهة العالم الأكثر قدما، وطريقة حكمها، وتدلنا على طريقة الإعمار والأقدار وتعلمنا كيف خلقت البشرية ولماذا وكيف أُسِسَت المَلَكِيَّة؟.

رابعاً- مفهوم النظام الاجتماعي:

1- النظام الاجتماعي لغة:

في لسان العرب باب النون.

النظام. نظم: النظم التأليف، نظمه ينظمه نظماً ونظاماً ونظمه فانتظم وتنظم ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك.

والنظام: ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره. والجمع أنظمة وأناظيم ونظم

وجاء في القاموس المحيط باب النون نحوه.

النظام: كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه.

وفي العين باب الظاء والنون والميم:

النظام: السيرة والهداية، وليس لأمرهم نظام: أي ليس له هدي، ولا متعلق يتعلق به. (1)

النظام: الترتيب والتنسيق، والطريقة والعادة

اجتماع. جمع: جمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعا، وجمعه وأجمعه فاجتمع، والمجموع الذي جمع

من ها هنا وها هنا، وإن لم يجعل كالشيء الواحد

والجمع اسم لجماعة الناس والمجمع يكون اسما للناس وللموضع الذي يجتمعون فيه. لسان العرب

باب الجيم.

(1) - القاموس الجديد، ص1230.

واجتمع: يجتمع، اجتمع، اجتماعا: الشيء، انظم وتآلف

والاجتماعي: الرجل كثير المخالطة للناس.⁽¹⁾

النظام الاجتماعي: هو الأداة التي يتحقق بها انضمام الأفراد إلى بعضهم وتآليفهم.

2- النظام الاجتماعي اصطلاحا :

تعددت التعريفات حول النظام الاجتماعي بتعدد المرادفات المقابلة له فكما نقول النظام

الاجتماعي، نقول البناء الاجتماعي أو النمط الاجتماعي وكل العبارات الأخرى التي تتضمن نوعا

من الترتيب المنظم.

فمالينوفسكي يستخدم المصطلح بمعنى أنه « الطريقة التي ينظم بها أعضاء المجتمع البيئة المادية التي

يعيشون فيها، لكي تشبع حاجاتهم العضوية والنفسية والاجتماعية⁽²⁾ .

وفي عام 1940 عقد راد كليف براون مقابلة بين مفهومي النظام الاجتماعي والبناء

الاجتماعي. «هذا الأخير الذي يشير إلى نسق من الأشخاص يشتغلون أوضاعا ترتبط بعضها ببعض

في الوقت الذي تتصل فيه مباشرة بتنظيم اجتماعي أو نسق للأدوار يخضع لقواعد وضوابط

اجتماعية»⁽³⁾ .

(1) – القاموس الجديد، ص14.

(2) - محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، ص430.

(3) - المرجع نفسه، ص431.

أما ريموند فيرث فيرى أن: «النظام الاجتماعي يشير إلى الترتيبات الفعلية في المجتمع، أي عملية ترتيب الأفعال وانتظام العلاقات من أجل أهداف اجتماعية، وقد تغير الوسائل التنظيمية من البناء الاجتماعي»⁽¹⁾.

فريموند فيرث يميز بين النظام الاجتماعي والبناء الاجتماعي على أساس أن النظام الاجتماعي يشير إلى الاختيارات والقرارات المتضمنة في العلاقات الاجتماعية الواقعية، بينما يشير البناء الاجتماعي إلى العلاقات الاجتماعية الجوهرية التي تعطي للمجتمع صورته الأساسية والتي تحدد الفعل الاجتماعي»⁽²⁾.

ويرى جمال سلامة علي أن مصطلح النظام الاجتماعي يطلق على أي من الأنشطة والتفاعلات الإنسانية النمطية والمستقرة وعبر الترابط بين الظواهر الاجتماعية المنسقة ينشأ النظام الاجتماعي. أما البناء الاجتماعي فهو الإطار التنظيمي العام الذي يندرج تحته كافة أوجه السلوك الإنساني في مجتمع ما، ويتضمن مجموعة النظم الاجتماعية ذات القواعد السلوكية المستقرة التي تحكم الأنشطة الإنسانية المتعددة في مجتمع ما. فالبناء الاجتماعي يشمل النظام الاجتماعي. وإذا كان النظام الاجتماعي يعني بنوع واحد أو بنمط محدد من السلوك الإنساني داخل المجتمع، فإن البناء الاجتماعي يعني بمجمل أنماط وأنساق هذا السلوك.

(1) - محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، ص430.

(2) - المرجع نفسه، ص432.

والنظام الاجتماعي: هو المجموعة من الأنماط السلوكية التي تحدث بصورة منتظمة داخل المجتمع ويرمي كل نمط من تلك الأنماط إلى تحقيق هدف محدد بذاته، وبموجب هذا الأثر من السلوك النمطي تحدث حالة من التقنين الاجتماعي بما يتفق ويتواءم مع حاجة الفرد والمجتمع⁽¹⁾. هذا وان تعددت التعريفات حول النظام الاجتماعي فإننا نجد أنها تشترك في اشتغالها على تحديد الأهداف، وتوجيه وتنظيم السلوك.

والنظم الاجتماعية الرئيسية التي سنتناولها بالدراسة في الفصل التطبيقي هي:

1- النظام الديني: وهو نسق المعتقدات الذي يمد الإنسان بتفسير لحقيقة الحياة والوجود وحقيقة الإنسان وواقعه ومركزه من هذا الكون وغاية الوجود والكون والإنسان ومصيره. وسبب التفاوت بين الناس وهدفه إلى جانب الطقوس والشعائر التي يمارسها الناس للتقرب من الإله، وعلاقة الإنسان به وبقية أعضاء مجتمعه. والأثر الذي يمارسه الدين على السلوك الاجتماعي للإنسان السلوك الاقتصادي، السلوك الأسري....

وابرز المؤسسات التي ترتبط بهذا النظام هي المعبد، الكهنة.

2- نظام الأسرة: وهو يتعلق بتنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة أساسا، باعتبارها أساس العلاقات الاجتماعية كلها، وبرز مؤسسة ترتبط بهذا النظام هي الأسرة.

3- النظام الاقتصادي: ويتعلق بممارسة الإنتاج وتوزيع السلع والخدمات وتحديد العلاقات أثناء تنفيذ هذه العمليات والمؤسسات التي ترتبط بهذا النظام أبرزها المزارع.

(1) - جمال سلامة علي: النظام السياسي والبناء الاجتماعي، النموذج الواقعي لتحليل النظام السياسي. الناشر: دار النهضة العربية 2006، ص53.

4-النظام السياسي: ويتعلق بممارسة السلطة والقوة في فرض النظام العام وتحميل المسؤولية

والمحاسبة عليها. وابرز المؤسسات التي ترتبط بهذا النظام هي :الدولة.

الفصل الثالث

موجز تاريخي عن أصل الأسطورة و النظريات التي حررت في ذلك وعرض تعبير أساطير الأولين في القرآن الكريم

أولاً: نشأة الأسطورة من الناحية التاريخية

1- النظرية الدينية، أو نظرية الكتب المقدسة

2- النظرية التاريخية

3- النظرية الرمزية أو المجازية

4- النظرية الطبيعية

ثانياً: الأساطير في القرآن الكريم

أولاً- نشأة الأسطورة من الناحية التاريخية :

وجدت الأسطورة مكتوبة على الرقم والألواح الطينية . واستخرجت من الخرائب وبين الأنقاض. وعلى الرغم من أن معظم الأساطير لم تصل كاملة ، إذ فقدت بعض سطورها بسبب تعرضها لعوامل التعرية كونها كتبت على الطين وبقيت تحت الأرض أحقاباً طويلة تصل إلى آلاف السنين، إلا أن هناك مشكلة أهم واجهت المؤرخين وهي مشكلة تفسير الأسطورة، ولم يكن تلف بعض أجزاءها أو ضياع سطورها هو السبب الرئيس في عمليات الترجمة والتفسير، بل أن السبب يرجع إلى جملة عوامل أهمها الفارق الثقافي والتاريخي بين من تولى الترجمة من الباحثين الغربيين وبين أصحاب الأساطير من جهة، ومن جهة أخرى اعتماد عمليات الترجمة على لغة تختلف في حروفها ومفرداتها عن اللغة التي كتبت بها الأساطير. ويعترف صمويل كرىمر الباحث المتخصص في الآثار والكتابات السومرية بالتقصير عن فهم مقولات الأقدمين قائلاً: «سيكتشف علماء عصرنا أننا مقصرون عن فهم المقولات (يقصد الأساطير) مقولات أولئك الأقدمين، أنهم كانت لديهم قناعة كاملة بأنهم يعرفون كيف يعمل هذا الكون، وكيف يمشي وكيف هي مسيرة الحياة»⁽¹⁾.

فمن المؤكد تاريخياً أن الإنسان الأول قد عرف الأسطورة، ومن المؤكد أيضاً حسب كرىمر أن الإنسان الأول كانت لديه قناعة كاملة بأنه يعرف كيف يعمل هذا الكون وكيف هي مسيرة الحياة.

(1) - الأسطورة توثيق حضاري، قسم الدراسات والبحوث، جمعية التجديد الثقافية، مملكة البحرين، الطبعة الأولى 2005م،

لكن عند محاولة العلماء المعاصرين تفسير الأساطير؛ نشأتها، بدايتها وأسبابها نجدهم لا يتفقدون على أسباب محددة، فـ **فجيمس فريزر وإدوارد تايلور** مثلا يريان أن كلمة أسطورة ترتبط ببداية الإنسانية، حيث كان البشر يمارسون السحر وطقوسهم الدينية التي كانت سعيًا فكريًا لتفسير ظواهر الطبيعة. « فقد عاش الإنسان أول مرة حياة بدائية محاطة بمئات الأخطار والأسرار، وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التي لم يستطع إدراكها إدراكًا علميًا على أن يتوهم لها تفسيرًا، ويتخيل أصولًا ووقائع يرتاح إليها وتزيل حيرة نفسه، فوضع الأساطير»⁽¹⁾، لكن **هربرت ريد** يؤكد أن فريزر وتلاميذه يخطئون في زعمهم أن أساطير الأولين كانت محاولات لتفسير الكون بل «إن الأسطورة في طورها الأول كانت جزءًا من طقوس العبادة داخل المعبد أو أمام المذبح- إن وجد- أو قبالة سيل جارف أو على حافة قفر يحتاج إلى الاستمطار ليخضر»⁽²⁾.

ويؤيده **ليني برول** الذي يرى «أن الأساطير لم تنشأ فيما يبدو عن حاجة الرجل البدائي إلى تفسير الظواهر الطبيعية تفسيرًا قائمًا على العقل، لأنه كان لا يعرف مجالًا مستقلًا لنفسه عنها. لكن نشأت استجابة لعواطف الجماعة القاهرة»⁽³⁾.

ومنهم من يرى أنها ترجمة دقيقة للحوادث التاريخية الجارية، استهدفت نقل تجارب الأولين وخرقهم المباشرة في البدايات الأولى للحياة على الأرض.

وهناك آراء أخرى حول هذه الظاهرة لكن لا يجيب أي منهما عن الأسئلة التي تثار حولها. هذا الاختلاف لا ينفي وجود الأسطورة « فهي تضع أمامنا أول المجتمعات في إطار محدد نوعًا ما فثمة

(1) - سليمان مظهر، أساطير من الشرق، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية، ص10.

(2) - أحمد كمال زكي، الأساطير. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص13.

(3) - أحمد كمال زكي، الأساطير الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص13.

نظام وعلاقات إنسانية ضيقة، وثمة تقاليد اجتماعية مهما تكن قيمتها، ومهما يكن زمنها هي نتاج سلالة سابقة اندثرت لسبب ما، والأسطورة عندها لها علاقة وطيدة بالطقوس التي كانت تقوم بلم شمل الأبناء على روح الجماعة، تلك الجماعة أو الجماعات كانت تقدم القرابين للآلهة، وكان لا بد أن تقول شيئاً وهذا الشيء هو الأسطورة⁽¹⁾.

وقد حفظ لنا التاريخ موروثاً ثقافياً من الأساطير سواء أكان شفاهاً - أمدتنا به الدراسات الميدانية الأنثروبولوجية في بقاع الثقافات غير الكتابية القائمة اليوم - أم كتابياً وصلنا من الحضارات العالمية الكبرى من يونانية وشرق أوسطية، وشرق أفريقية، وهي ميثولوجيا تتمتع بقيمة تاريخية يمكن لها أن تضيء لنا الملامح المبكرة لمغامرة الإنسان العقلية وتجربته الروحية لأنها حافظت على أصلها، فهناك أساطير بابلية وسومرية يعود أصلها إلى ألفي سنة قبل الميلاد تتطابق مع أحدث الأساطير اكتشفاً (القرن السابع قبل الميلاد) مما يدل على أن النص قد عاش وتم تداوله بحرفيته مئات السنين، وهذا يدل حسب فراس السواح «على أن أساطير الشرق الأدنى، هي أولى الأساطير التي خطتها يد الإنسان وذلك بسبب تدين إنسان هذه المنطقة، ونزوعه إلى المحافظة على هذا الموروث، فقد خلف لنا تركة ميثولوجية غنية تعبر أبلغ تعبير عن مرحلة الفكر الإنساني في مرحلته الأسطورية»⁽²⁾.

هذا الموروث الثقافي بشقيه الشفهي والكتابي، لم يتم الاهتمام به إلا من حوالي مئة سنة، ولم يتهيأ لأحد فيما يبدو أن يضع يده على أصل الأسطورة، ويجدد خطوات سيرها وفي محاولة للوصول إلى

(1) - المرجع نفسه، ص 15.

(2) - إ.أ. جيمس. الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى القديم، ترجمة يوسف شلب الشام، دار التوحيد للنشر، الطبعة الأولى 1998، ص 10.

أرضية علمية مشتركة في تفسير أصل الأسطورة يقرر توماس بولفينش في كتابه «ميثولوجيا اليونان وروما» وجود أربع نظريات في أصل الأسطورة. وهذه النظريات هي:

1- النظرية الدينية، أو نظرية الكتب المقدسة:

تقرر حكايات الأساطير كلها مأخوذة من الكتاب المقدس مع الاعتراف بأنها غيرت أو حرفت ويرى مرسيا إلياد «أن الرموز الدينية ظهرت من خلال تأثير الأشكال الطبيعية للعامل على المجتمع الإنساني، ومن ثم برزت الأساطير لتقوم بتنظيم تلك الرموز في ثقافة معينة للتعبير عن الحدس الأزلي، إلا أن تلك الأساطير أضيف لها، وغير فيها، كما حرف أصلها الديني حتى خرجت عن الحقيقة الدينية إلى الأسطورة ومن ثم يوجد تشابه في مثل هذه الأساطير عند الشعوب»⁽¹⁾.

2- النظرية التاريخية:

في حالة الميثولوجيا لا نستطيع أن نعتبر الخلفية التاريخية كما يقول مالمينوفسكي شيئاً لا أهمية له، ذلك لأن الأسطورة في شكلها البدائي «ليست مجرد حكاية، وإنما هي حقيقة معيشة، وهي ليست خيالا وإنما هي واقع حدث في زمن جد بعيد، ولا يزال يمارس نفوذه على العالم، وعلى مصائر الناس، وهي بالنسبة للهمجي مثل قصص التوراة عن خلق الكون وسقوط الإنسان أو الخلاص عن طريق تضحية المسيح على الصليب بالنسبة للمسيحيين»⁽²⁾، من هذا المنطلق فإن

(1) -مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة دمشق، ص15.

(2) - إ.أجيمس، الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى القديم ترجمة يوسف شلب الشام، دار التوحيد للنشر، الطبعة الأولى

هذه النظرية تميل إلى أن الشخصيات الفاعلة في الأسطورة عاشوا فعلا، وحققوا سلسلة من الأعمال العظيمة، وبمرور الأيام والسنين.

أضاف لهم خيال الشعراء ما وضعهم في ذلك الإطار العجيب الذي يتحركون فيه، وقد حاول بوهيمروس الإغريقي (القرن الرابع قبل الميلاد) جاهدا أن يثبت أن كل الأساطير القديمة عبارة عن أحداث تاريخية حقيقية، وأوضح أن الآلهة لم تكن في الأصل سوى كائنات إنسانية أثبتت امتيازها، فما كان من الناس إلا أن أهوما وعبدوها بعد امتيازها، فما كان من الناس إلا أن أهوما وعبدوها بعد موتها.

3- النظرية الرمزية أو المجازية:

وهي تفترض أن كل أساطير الأقدمين لم تخرج عن أن تكون في شتى أشكالها الدينية والأخلاقية والفلسفية والتاريخية، مجرد مجاز ولكن بمرور الوقت استوعبها الناس على أساس ظاهرها الحرفي.

4- النظرية الطبيعية:

وبمقتضاها يتم تخيل عناصر الكون من ماء وهواء ونار في هيئة أشخاص أو كائنات حية أو أنها تختفي وراء مخلوقات خاصة، وعلى هذا النحو وجد لكل ظاهرة طبيعية، ابتداء من الشمس والقمر والبحر، وحتى أصغر مجرى مائي كائن روحي (آلهة) يتمثل فيه، وتبني عليه أسطورة أو أساطير.

وبعد عرض هذه النظريات التي بلورت آراء وإجابات العلماء والفلاسفة في أصل نشأة الأسطورة يعقب بوليفيتش بقوله: «وكل هذه النظريات صحيحة إلى حد ما ولذلك فمن الأصح أن يقال أن أساطير أمة ما قد انبثقت من كل هذه المصادر مجتمعة».

ونحن نميل إلى أن أصل الأسطورة هو الوحي الإلهي، مع الاعتراف بان هناك نوعا من التداخل الذي يخلق تكاملا بين النظريات الثلاث الأخرى (التاريخية، الرمزية، الطبيعية) في تفسير أصل الأساطير مهما كان زمانها أو موطنها؛ فالنظرية التاريخية تعطي تفسيراً منطقياً شاملاً لنصوص الأساطير من حيث الواقع والمضمون والشكل، وتكاد تفسر كل الأشياء الواردة في الأساطير، لأن الأساطير في مجملها تحكي أفعالا عظيمة لقوى عظيمة، كان لها دور رئيسي في تشييد أساسات النظام على هذا الكوكب.

والنظرية الرمزية تركز على الشكل الذي ظهرت عليه الأساطير كونها تستخدم الرموز كمجازات للتعبير عن معانٍ عظيمة ولكن باستخدام لغة بسيطة مثيرة، وان فهم هذه الرموز يعتبر المفتاح الرئيسي لفهم الأسطورة بأكملها.

أما النظرية الطبيعية: فليست إلا صورة من صور النظرية الرمزية التي تضيف صفة رمزية على الظواهر الطبيعية من ماء وهواء، بكائنات ومخلوقات مرئية من الطبيعة.

في مقابل النظريات الوضعية التي حررت في نشأة الأساطير وتفسيرها نعرض إلى عرض

تعبير «أساطير الأولين الوارد» في القرآن الكريم.

ثانيا- الأساطير في القرآن الكريم:

أن لكل لفظة قرآنية سرا وحكمة تدل عليها آياته - سبحانه وتعالى - وان أحد سبل الوصول إلى مراد الآية هو بالتعرف على دورها الخاص في موقعها الخاص، وربطها بما قبلها وما بعدها.

ورد لفظ الأساطير في تسع موارد متفرقة في القرآن الكريم. وهو تكرر يستحق بذل الجهود لدراسته واستخلاص المعاني المتضمنة فيه.

ولنا أن نسال: ما موضوع الآيات التي ذكرت الأساطير؟ ومن الذي قالها؟ وهل أن الله سبحانه وتعالى قد رد على من ذكر الأساطير؟ ولماذا؟ وهل يمكن فهم شيء عن مضامين الأساطير من خلال فهمنا للآيات؟ ولماذا لم تأت لفظ "الأساطير" لوحدها، بل جاءت في الآيات كلها مضافة إلى الأولين "أساطير الأولين"؟

لم ترد كلمة الأساطير لوحدها في جميع الآيات التسع، بل وردت مضافة إلى الأولين: "أساطير الأولين"، وجاءت ثماني آيات منها في سور مكية، عدا سورة واحدة مدنية هي سورة الأنفال، التي تعتبر سورة انتقالية للعبور من العهد المكي إلى المدني.

كما وردت جمعا، ولم ترد مفردة (أسطورة)

وفيما يلي سنذكر الآيات حسب تسلسلها في المصحف.

- 1- «يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين» (الأنعام:25)
- 2- «لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأوليين» (الأنفال:31)
- 3- «وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم: قالوا: أساطير الأولين» (النحل:24)
- 4- «لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين» (المؤمنون: 83)

5- « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا»
(الفرقان:5)

6- «لقد وعدنا هذا، نحن وآباؤنا من قبل: إن هذا إلا أساطير الأولين»
(النمل:68)

7- «آمن إن وعد الله حق، فيقول: «ما هذا إلا أساطير الأولين» (الأحقاف:17)

8- «إذا تتلى عليه آياتنا، قال: أساطير الأولين» (القلم: 13)

9-«إذا تتلى عليه آياتنا، قال: «أساطير الأولين» (المطففين: 13)

إن القارئ لهذه الآيات يجد أن العنصر المشترك فيها أن «أساطير الأولين جاءت على لسان الكافرين بدعوة الحق كما أن كل الآيات قبلت في مناسبات الاحتجاج والجدال حول قضايا إيمانية عقلية منطقية تدعوهم إلى النظرة في الدعوة الجديدة (الإسلام)، نظرة متجردة أبرزها الدعوة للتوحيد، وقبول البعث والحساب وأمام عجزهم عن رد الحجة بالحجة يلجؤون إلى إغلاق باب الجدل، بنسبة ما يسمعونه إلى أساطير الأولين، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن هؤلاء كانوا يعلمون أن هناك تراثا مسطورا وضعه الأولون، ويبدو أيضا، أنهم كانوا يحتفظون في أذهانهم ببعض معالمه، ودعوة محمد -صلى الله عليه وسلم- قد ذكرتهم بتلك المعالم، فأقروا بأن ما يعرفونه سابقا عن أساطير الأولين يتضمن معاني تقترب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم (الأساطير) وهي تخالف معتقداتهم، وما هم عليه، فقد حافظ التراث على مضامينه أو بعضها إلى عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- عبر تناقله شفويا، إذ لم تكن المدونات والرقم متداولة كونها بقيت مطمورة تحت الأرض لآلاف السنين، قبل أن تكتشف في العصر الحديث ومن الآيات السابقة نستخلص أن

:

1- قضايا الرسل في جوهرها الاعتقادي (التوحيد) والأخلاقي (القيم) والاجتماعي (العدل والمعروف) موجودة في أساطير الأوليين.

2- هناك نسبة موجودة بين أساطير الأوليين، والرسل القبليين، وقد ابرز تلك النسبة تشابه ما ورد في الأساطير مع رسالات الرسل وأقوال الأنبياء عليهم السلام باعتراف الكفار أنفسهم.

3- لم تستعمل "أساطير الأوليين" مع أي نبي آخر غير محمد - صلى الله عليه وسلم - ما يعني:

أ- أن هذا التراث (الأساطير) هو تراث الأنبياء والمصلحين والأحناف قبله.

ب- أن الأساطير كمفردة تاريخية صار لها وجود حاضر في عصر البعثة المحمدية لاشتهار التسطير (التدوين)، ولم تكن متاحة فيما سبق إلا بشكل خاص للخوادم.

ج- أن ابتعاد الزمن وتشوه عقائده، وتردي أخلاقه جعل من هذه الكلمة نقيصة يلوكها الكافرون بالذمة، في حين أنها كانت في الزمن السابق القديم رمز عقيدة صحيحة، ورفقي وحضارة وعلم.

4- نفى الله سبحانه وتعالى عن نبيه محمد عليه السلام ما أدعوه عليه أنه مجنون، وساحر وكاهن، ومفتون وشاعر كما نفى عن القرآن أن يكون مفترياً، وأن آياته اكتتبتها من أناس أو قول شيطان رجيم أو شيء آخر، لكنه لم ينف وجود ذلك المضمون ولا مرة واحدة في أساطير الأوليين.

5- أثبت سبحانه وتعالى وجودها (أساطير الأوليين) بشكل مباشر في أساطير الأوليين الصحيحة. وسمها «وانه لفي زبر الأوليين» (الشعراء 196)، «إن هذا لفي الصحف

الأولى» (الأعلى: 18).

وعد هذا التشابه بينة على صدق المصدر ووحدته «أولم تأتمم بينة ما في الصحف الأولى»
(طه:133).

6- لم يُسَمَّ الله سبحانه مصادر الحق (الزبر والصحف) «أساطير الأولين»، لأن تسميتها تنفي نسبتها لله وتجعلها، وكأنها اجتهادات أو خيالات الأوائل، وهو أمر صحيح على مستوى الصياغة ففيها من المحسنات والإضافات والرموز والتمثيلات المقدار الكثير، لكن مضمونها هو مضمون كتب السماء من توحيد وإيمان بآخرة وبرسل، وبملائكة وبالعدل والعمل الصالح والنظام الاجتماعي السوي، واحترام الطبيعة، والنظر إلى كل الأمور أنها آيات من الرب، وهل القرآن يقول غير هذا؟ فأساطير الأولين ، ليست هي الصحف الأولى، ولا الزبر، بل هي إعادة صياغة لتلك القيم والاعتقادات في قوالب ملحمية محببة لتحفظ.⁽¹⁾

www.tajdeed.org/article.aspx?id=10141

(1) - جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

www. Imadkanaan.jeeran.com/Fikr/20%أسطوري htm

- أسطورية القرآن أم ألوهيته ؟

- الأسطورة توثيق حضاري ، قسم الدراسات والبحوث، جمعية التجديد الثقافية مملكة البحرين، الطبعة الأولى 2005 (بتصرف).

الفصل الرابع

علاقة الأسطورة بغيرها من المصطلحات المشابهة لها

أولاً: علاقة الأسطورة بالخرافة

ثانياً: علاقة الأسطورة بالحكاية البطولية

ثالثاً: علاقة الأسطورة بالحكاية الشعبية

رابعاً: علاقة الأسطورة بالفلكور

رغم أن الأقدمين لم يطلقوا على حكاياتهم المقدسة اسما معيناً، ولم يجمعوها في سفر واحد يفرقها عن بقية الحكايات إلا أنهم كانوا يميزون وبدقة بين ما هو حقيقي ومقدس مرتبط بالمعتقدات الدينية، وبين ما هو مجرد حكاية ذات مضمون أدبي بحت. إلا أن تطور اللغة ونضجها وتنوع أساليب التغيير اللغوية، أدى إلى «تحول نوع من الأساطير إلى مجرد أدب دنيوي، يعيش على هامش الدين ولا يتصل به إلا بأوهى اتصال... فظهرت زمرة من الأساطير غير الدينية وتخدم غايات معرفية ومجتمعية شتى، قد يخرج بعضها عن النطاق الميثولوجي، ويشق لنفسه طريقاً مستقلاً، وهذه بدايات تشكل الحكايات الخرافية والقصص البطولية والشعبية... وما إلى ذلك من أجناس أدبية ورثت الأسطورة ونهلت منها⁽¹⁾.

أولاً- علاقة الأسطورة بالخرافة :

ارتبطت الأسطورة في أذهان الكثيرين - وإلى يومنا هذا- بالخرافة أو الحديث الباطل واعتبر كلاهما شيئاً واحداً، كما ذهب إليه أرسطو، لكن الأسطورة هي حكاية مقدسة يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصدق روايتها إيماناً لا يتزعزع فما يميزها عن غيرها هو الاعتقاد فيها.

أما الخرافة فهي حكاية مملأة بالمبالغات والخرافات وتجري أحداثها بعيداً عن الواقع حيث تتحرك شخصياتها بسهولة بين المستوى الواقعي المتطور، والمستوى الخيالي «وتتشابك علائقها مع كائنات غيبية متنوعة مثل الجن والعفاريت والأرواح الهائمة، وقد تدخل الآلهة مسرح الأحداث في الخرافة ولكنهم يظهرون هنا بأشبه بالبشر المتفوقين لا كآلهة سامية متعالية كما هو شأنهم في الأسطورة. ومن هنا فإن الحدود بين الأسطورة والخرافة ليس دائماً على مستوى كبير من

(1) - فراس السواح، دين الإنسان، دار علاء الدين والتوزيع والترجمة، الطبعة الثانية، ص 64-65.

الوضوح، وقد يشبه بعض الخرافات الأساطير في الشكل والمضمون إلى درجة تثير الالتباس والحيرة»⁽¹⁾.

فلا نستطيع التمييز بينهما إلا باستخدام معيار الاعتقاد- الذي أثبتناه في التعريف- أما الخرافة فإن راويها ومستمعها على حد سواء يعرفان منذ البداية أنها تقص أحداثا لا يعتقد أحد بتصديقها أو الإيمان بها فالخرافة ليست موضع اعتقاد. وهناك معايير أخرى وضعت للتمييز بين الخرافة والأسطورة وإن لم تكن على قدر كبير من الدقة.

أ-توجد الأساطير عادة في التراث فصيح اللغة وتوجد الخرافة في عاميتها، باعتبارها جزءا من الحكاية الشعبية ولا يمكن اعتبار هذا المعيار فاصلا بينهما لوجود خرافات شتى باللسان الفصيح مثل فابولات^(*)، الإغريق، وديكاميرون بوكاتشيو^(**).

ب-تنتهي الأسطورة لعهد ما قبل الديانات السماوية وترتبط الخرافة بعهود ما بعد الوثنية « وفي هذا الصدد يكاد يكون ثمة إجماع على أنه إذا تضمنت الحكايات موضوعا دينيا فمن السهل أن نجعلها أساطير للآلهة، وتلك تظل دائما من صميم معتقدات الشعب، ويظل في وسعها أن تلعب دورا مهما في العقيدة، في حين لا يكون للحكاية الخرافية علاقة بالماضي ولا الحاضر على حد سواء»⁽⁴⁾.

ونخلص في الأخير إلى أن التشابه الكبير بين الخرافة والأسطورة لا يجعلهما اسمين لمعنى واحد.

(1) -فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1997، ص15.

(*) - الفابولا: كلمة لاتينية تعني حكاية خرافية تخلع على الحيوان خصائص بشرية واسمها في اليونانية "Apologos" وتعني حكاية ذات مغزى خلقي.

(**) -ديكاميرون: الصباحات العشرة للمجموعة القصصية التي ألفها بوكاتشينو متأثرا بألف ليلة وليلة.

(4) - أحمد كمال زكي، الأساطير الهيئة المصري العامة للكتاب، ص23.

نموذج للخرافة: رستم ومالك الجن⁽¹⁾

كان الفرس يتغنون ببطولة رستم.. بطل الأبطال.. حتى لقد سموا قوس قزح.. بقوس رستم. وكانوا يبالغون في بطولته حتى نسبوا إليه الخوارق. ولم يكتفوا بانتصاراته الرائعة على جيوش الإنس.. بل نسبوا إليه حروبا أخرى ينتصر فيها على الجن والشياطين والسحرة أيضا..

أما مسرح هذه الأسطورة، فبلاد مازندران أي طبرستان، والتي يسمونها أرض الجن الأبيض.. لأنهم كانوا بيض الوجوه.. واستطاعوا ذات يوم القضاء على جيش مصقلة أحد قواد معاوية إذ فاجأوا من فوق الجبال بوابل من الحجارة والصخور. حتى هلك أكثره.. ولعل هذا هو سبب تسميتهم بالجن.. ولعل في طبيعة أرضهم ومضايقتهم ما يفسر مغامرات هذه الأسطورة..

كان «قابوس» ملك فارس، جالسا على سرير ملكه حين وقف ببابه مغن حاذق من بلاد مازندران، وكان الملك مولعا بالشعر والغناء فأذن للغريب بالدخول عليه وتقديم بعض ألحانه.

وأخرج الغريب عوده، وحس أوتاره، ثم انطلق في صوت كأنه الطيب، يصف جنان الخلد التي تضمها مازندران، ويحكي أقاصيص الهوى والعشق التي تعيش فيها عذارها الرائعات وطرب الملك للغناء، بقدر ما اشتاق إلى تلك البلاد التي لم يذهب إليها من جيوش أجداده جيش قط، وفي غمرة النشوة بالطرب والشوق، قرر «قابوس» أن يستولي على بلاد الجنة.. وأن يجعل له عاصمة هناك..

وأخذت الرعدة كل من بالجلس.. فما من أحد إلا ويعرف أن مازندران مأوى الشياطين وموطن السحرة، يعيشون فيها جنبا لجنب مع السباع والتمور والديبة والذئب، ولكن أحدا من رجال

(1) – سليمان مظهر، أساطير من الشرق، المصرية العامة للكتاب، ص134.

القصر لم يجرؤ على رد الملك عما ارتآه.. حتى جؤذر قائد الجيش امتثل للأمر، ولم يستطع إلا أن يأمر كل قواته بالاستعداد للخروج للمعركة الجديدة.. وعلى رأسها قابوس نفسه.. ملك الفرس.

ونزلت جيوش «قابوس» على حدود مازندران، وانقض رجال الطليعة على المدينة التي لم تكن قد استعدت بعد، فلم تدر إلا وحشود هائلة تخترق أبوابها، وسيوف طويلة تقتلع رؤوس الصغار قبل الكبار.. ومشاعل من نار تحرق وتدمر، ولا تبقي من بيوتها ومغانيتها شيئا قط.

وبلغ أمر الهجوم آذان ملك البلاد، فألم به الحزن، ثم رفع رأسه ينادى أحد جنود الجن عرف بالمكر والدهاء.. وأمره أن ينطلق إلى سيديديو ملك الجن يخبره بما صنع قابوس..

وانتفض ملك الجن حين سمع النبأ.. ولم يكد الليل يهبط حتى كان قد انقض في جنوده على معسكر «قابوس» فأطبق عليه أطباق السحاب، وأمطر عليه من السماء حجارة ونصالا.. ثم أرسل جحافل الظلمة تحوطه من كل جانب، وتجعل الجيوش في أعماق ليل دائم طويل.

وأطل رجال الفرس، فإذا بهم غارقون في بحر أسود كأنه القار، لا يرى أحد من حوله شيئا ولا يبصر إذا أراد حتى كفه، وعندما اطمأن ملك الجن بيدييو إلى أن أعداءه قد حبستهم الظلمة، ولم يعودوا يرون قمرا ولا شمساً قط.. وكل بهم إثني عشر ألفا من الشياطين تحوطهم وتمنعهم.. وأمرها ألا تسمح لأحد بالخروج سوى واحد فقط..

ليذهب إلى أهل بلده يقص عليهم الأمر ليعتبروا.. وليعرفوا أن الهجوم عن إقليم الجن والشياطين ليس من ورائه سوى الخسران..

واستطاع رسول «قابوس» أن ينفذ فعلا من الحصار، ولكنه لم يذهب إلى بلاده، بل انطلق إلى الملك دستان أبو رستم يستغيث به.. ويطلب النجدة منه والغوث على جيوش ملك الجن..

وحزن دستان لما ألم بصديقه قابوس، واقبل على ولده رستم البهلوان وقال له:

إلى النجدة أيها الفارس الذي أن حارب البحار صارت دماء.. وإن كافح الجبال عادت فضاء،
جرد سيفك وخذ فرسك وانفض إلى مازندران، تدق عنق ملكها وتخلص من شرور جنها، فإذا
بدأت السير فلا تأخذ الطريق الطويل السهل بل خذ اقصر الطرق لتكون أسرع إلى النجدة.. فهو
لا يزيد عن مسيرة أربعة عشر يوما.. على أن تحذر خلاله ما يحتويه من شياطين وسباع..
وسأنفض أنا لأسجد لرب السموات أن يحميك ويحرسك ويردك إلى أبيك مرفوع الرأس منصورا..
ونفض رستم فلبس سلاحه وركب فرسه «الرخش» فكأنه فيل على فرس.. وانطلق في الطريق
الوعر الشاق ليكون أقرب إلى نجدة من استنجد.. وإغاثة من استغاث.

وراح رستم يخترق الصحاري الواسعة التي تلتهب أرضها بالنيران، ولا من أنيس له غير سيفه
وفرسه، وظل يمضي مع النهار ومع الليل حتى انقضى يومان لم يأكل خلالهما شيئا من طعام قط،
فلما انتبه إلى نفسه وأحسن الجوع، أطل حوله يبحث عن صيد، فإذا حمار وحشي يروح هنا
وهناك فانقض عليه في لحظة وصرعه.. ثم سواه على نار أوقدها وأتى عليه جميعه.. وعندما أحس
رستم بالشبع، أوى إلى ظل قصب هناك.. وترك فرسه «الرخش» يرعى في أجمة بين يديه..
واستسلم هو لنوم عميق.

ولم يكد رستم ينام حتى خرج من الغاب أسد راح يقترب في بطاء من البطل الراقد كركن جبل،
وانتبه «الرخش» فوثب عليه، وضربه بقائمتيه فغلق رأسه ومزق جلده، وتركه غارقا في لجة من
الدم، وعندما استيقظ رستم ورأى صنيع فرسه، أقبل عليه ومسح غرته بيده وقال له: لو انتبهت
لكفيتك شر القتال.

وعاد رستم يسير في الطريق الموحش من جديد، وطالت مرحلة السير، والهجير يشتد حتى بلغ به العطش حد الهلاك، وكاد رستم أن يقع على الأرض حين لاح له غزال أعاد إليه نشاطه، فحث فرسه وأسرع خلفه.. فإذا الغزال يقف عند عين ماء يشرب منها ثم يستأنف عدوه.

وإذا رأى رستم الماء توقف عنده، وشرب وسقى فرسه.. ولم يتبع الغزال إذ حمد له أن هداه إلى الماء.. ثم عاد يستأنف سيره حتى جاع، فاصطاد حمارا وحشيا شواه وأكله.. ثم استلقى لينام..

وينما هو نائم خرج عليه تنين هائل تحرق أنفاسه ما حوله من الحشائش، ولم يكد الفرس يراه حتى أسرع إلى رستم فأيقظه بصهيله، وضرب حوافزه في الأرض، وإذا رأى رستم التنين حمل سيفه وهاجمه، ونشبت بينهما معركة طويلة دامية كادت تنتهي بهزيمة البطل، لولا أن نهض الفرس لمساعدة سيده، وحمل على التنين وقضم كتفه بأسنانه فقطعه، وانقلب التنين على ظهره فألقمه رستم السيف فشقه، ثم رجع إلى العين فاغتسل بمائها، ومضى لسبيله من جديد.

استمر رستم في سيره يخرق الفيافي والقفاز حتى بلغ لأول مرة أرضا خصبة كثيرة الخيرات، فأرسل فرسه يرعى، واتكأ ليستريح.

وإذ هو كذلك جاءه ناطور تلك الأرض وزعق طالبا منه أبعاد فرسه عن أكل الزرع، وضربه على رجله بعصا كانت معه، وثار غضب رستم، وهجم عليه وجذبه من أذنيه فاقتلعهما، وحمل الناطور أذنيه الداميتين، وعدا هاربا إلى «أولاد» ملك الناحية، فانطلق هذا ومعه حرسه إلى حيث كان رستم الذي ركب فرسه وحمل عليهم ووقع فيهم كما يقع الأسد الهائج بين قطيع من الغنم، وتساقطت رؤوس أصحاب أولاد الذي انطلق يلتمس المهرب.. غير أن رستم عدا خلفه وقبض عليه.. وشد وثاقه وألقى به مقيدا بين قدميه..

وقال رستم يخاطب أولاد:

-الآن أطلب منك طلبا وأعطيك عهدا، فإن أنت دللتني على ملك الجن سيذديو وأوصلتني إلى

المكان الذي حبس فيه الملك قابوس.. جعلتك ملكا على عرش مازندران..

وقبل أولاد الاتفاق.. فكك رستم قيده، وجعله يسير بين يديه ليدله أولا على مكان قابوس. وبينما

هما في الطريق إذ شهد رستم عن بعد نيرانا موقدة وشموعا مشتعلة، سأل عنها أولاد فأجابته.

-ذلك يا سيدي باب مدينة مازندران يجرسه قواد ملك الجن وجنودهم.. وهم لا ينامون ثلثي

الليل.

فانتظر رستم حتى جاء الثلث الأخير الذي يستسلم فيه الجن للنوم فحمل عليهم، وخرج له قائد

الجن «ارزنك» واشتبك معه في صراع هائل عنيف.. انتهى عندما أنشب رستم برائه في عنقه،

واقطع رأسه فحملها على حد السيف، وشهد جند الجن ما صنع رستم بقائدهم ففروا هارين..

وعاد هو يسير مع دليله أولاد إلى حيث يلتقي بقابوس.

ووجد رستم الملك قابوس غارقا في الظلمة، قد عمى بصره وأحيط به مع كل جيشه واستقبله

«قابوس» والجيش في فرح رائع، ثم طلب منه أن يسرع بمفاجأة سيذديو ملك الجن قبل أن يبلغه

نبأ مقتل قائده، وقبل أن يعلم بمجيئه.. وقال له: إن العمى الذي أصابه لا يشفى إلا إذا اكتحلت

عيناه بدم كبد ملك الجن.

ومضى رستم وأمامه دليه الملك أولاد، وراحا يسيران مخترقين جبالا سبعة هي التي تفصلهما عن

المغارة التي يقيم فيها ملك الجن. وخلال الطريق أخبر أولاد رستم أن الجن ينامون اذا حميت

الشمس.. ويكون ذلك الوقت هو خير الأوقات لمهاجمتهم.

وانتظر رستم حتى ارتفعت الشمس. وإذا جاء الضحى امتطى فرسه وهاجم الشياطين وراح يعمل فيهم سيفه يمينا ويسارا حتى بلغ باب المغارة فوجدها غارقة في الظلمات. ولم يعبأ رستم بالظلام بل اقتحم المغارة بفرسه يطلب سرير ملك الجن، وعندما بلغه وجد سبيذديو واقفا ووجه أسود كالليل، وعينه اندلع منهما لهيب كالجحيم.. وشعره الأبيض يتشعب فوق رأسه، ولما رأى ملك الجن رستم وثب عليه في حنق.. وانتبه رستم، ورفع سيفه ثم انقض به على ساق سبيذديو فقطعها.. والتحم الاثنان في قتال مر عنيف.. كان الدم يتزف خلاله من جرح الجني غزيرا يضع حدا لمقاومته.. ويسلمه لهزيمة سريعة قاسية.

وكان لابد لرستم أن ينتصر بعد أن بدأ سبيذديو ينهار ويتساقط. وهنا رماه رستم في عنف على الأرض فسقط.. وانقض عليه بسيفه ففضى عليه.. وعندما اطمأن إلى موته انحنى عليه وقد استل خنجره وشق به جنبه واستخرج كبده.. ثم غادر المغارة في زهو، وانطلق معه أولاد إلى حيث كان «قابوس» لا يزال ينتظر فبشره بمقتل عدوه، وقدم له الكبد الذي طلبه.. وشكره الملك واثني عليه، ثم اكتحل بقطرات من دم كبد الجني فعاد إليه بصره.. ورأى من حوله كل شيء.

واحتفل ملك فارس وقواده ومعهم رستم وأولاد بالنصر الكبير سبعة أيام كاملة، وعندما جاء اليوم الثامن انطلقوا شاهرين سيوفهم فانتشروا في مدينة مازندران.. وعملوا فيها الضرب والقتل بعد أن فتحوها ثم قرروا أن يرسلوا إلى ملكها يطلبون منه التسليم، أو يقتحموا كل أملاكه ويتزلوا به أمر القضاء..

ونفض رستم طالبا أن يكون هو نفسه رسول «قابوس» إلى ملك ماندران، وانطلق البطل على «الرخش» حتى بلغ مكان الملك الذي أمر قواد الجن وخير الفرسان وأبرع الشجعان ليكونوا في استقبال رستم.. وليطلعه على مدى قوتهم..

وشهد رستم من بعيد مستقبله، فمال على شجرة قريبة ورفعها كما ترفع عصا الخيزران، واقترب بها منهم ثم رماها عليهم، فاضطرب شملهم وكاد يقع أكثرهم بين قتيل وجريح.. واقترب أحد أبطالهم من بطل الفرس وقبض على يده.. ولكن هذا ما اهتم بالضغط العنيف الذي راح الفارس يضغطه على يده، فلما انتهى مد هو يده وعصر كفه حتى تغير لونه وشحب وجهه.. وبدأ يصرخ.

وسمع الملك بما كان، فدعا إليه جنيا يسمى كلاهور هو أقوى من في معسكره، فأمره باستقبال الرسول وإظهار قوته أمامه، ومد كلاهور يده إلى يد رستم فعصرها حتى صارت زرقاء كالسما.. ولم يبد على وجه رستم شيء من الألم، وعندما جاء دوره ليحي كلاهور، عصر كفه حتى تساقطت أظفاره.. وصرخ الجني وانطلق إلى الملك يغلي ويرتعد ويقول له: السلم خير لك من الحرب يا مولاي.. فلا قدرة لنا على مقاومة مثل هذا الوحش..

وفي تلك اللحظة دخل رستم، فأجلسه الملك في مكان يليق به، وطلب أن يبلغه الرسالة التي يحملها.

وألقى رستم بما لديه.. في صوت جهوري عنيف، ولم يكذب ينتهي حتى ثار غضب الملك وقال له:

قل لقابوس: إن كنت ملك فارس، فأنا ملك مازندران المستقر على عرشها الخالد أبدا.. فأرجع إلى مملكتك ولا تحدث نفسك بالاستيلاء على عرش الملوك.. فإني إذا زحفت في جيوشي نحوك لم تعرف رأسك من ذنبك.. وأنى إذا واجهتك في مأزق الحرب حسمت موقفك بسيفي الصارم الذي لا يخيب.

وغضب رستم من رد الملك، وانطلق عائدا إلى قابوس فأخبره بما حدث، وطلب منه أن يتأهب ويتقدم للقتال.

وكان ملك مازندران قد استعد منذ خرج رستم من حضرته، فأمر بضرب العسكر في ظاهر المدينة، وانطلق في جيش جرار لا حصر له آخذا طريقة لاستقبال جيوش رستم وقابوس، والتقى الجيشان، وتقدم فارس جني عملاق من أصحاب ملك مازندران يسمى جويا يسأل هل من مبارز؟ ولم يجبه أحد من أصحاب قابوس إذ سيطر عليهم الرعب من منظر الجني، غير أن رستم استأذن ملكه في مبارزة الجني.

وإذ أذن الملك نهض رستم وشرع رمحه وانطلق لمبارزة فارس الجن.

وبدأت المبارزة عنيفة راح كل منهما يدور حول نفسه خلالها مرات.. وكاد رستم يفقد النصر، لولا أن تمكن من الدوران في سرعة خلف الجني، ووضع سنان رمحه بين كتفيه.. ثم رفعه عليه كالطير على السفود.. وألقى به وسط جيشه صريعا مضرجا بالدم.

وتعجب أسود مازندران وشياطينها.. وملأت الرعدة قلوبهم.. إلا أنهم اضطروا للامتثال لأوامر الملك حين أمرهم بالهجوم على رستم وجيوشه.

وارتفعت من الجانبين أصوات الطبول.. ودارت المعركة وارتجفت الأرض وأظلمت الآفاق..
وراحت الفرسان تتصاول والجيوش تتلاحق والنصر يتأرجح بين هذا وذاك.

ومر أسبوع كامل والقتال لا يريد أن ينتهي، عندئذ برز رستم يطلب مبارزة ملك مازندران نفسه، وانتفض الملك غاضبا، وانطلق من بين رجاله وهو يطلق صرخة غضب عنيف.. وانقض على بطل الأبطال.

وكان الملك قويا ماردا.. راح يهاجم رستم في عنف كاد يكتسب معه النصر.. لولا أن رستم تحين فرصة طعن خلالها الملك في خاصرته طعنة ألقته به على الأرض من فوق ظهر فرسه.
وعندما سقط الملك سحر نفسه في سرعة ليبدو أمام الناس صخرة عظيمة لا يقدر على زحزحتها أحد، ولكن رستم وقد أدرك ما فعل الملك تناول الصخرة العظيمة ورفعها فوق رأسه، وسار بها والناس من حوله يعجبون، حتى وصل بها خيمة قابوس.

وطرح رستم الصخرة العظيمة أمام صاحبه.. وخاطب الملك الساحر قائلا:

-إذا لم تخرج عن شكلك هذا حطمتك بالمعاول والفؤوس.

وارتجفت الصخرة لتعود من جديد إلى صورتها الأولى.. وانحنى الملك إذ عاد إلى صورته وراح يستجدي عفو قابوس.. إلا أن هذا أمر الجلالد بقطع رأسه.. ورفعته على سنان الرمح ليديه للناس.
وانطلقت جيوش قابوس تجمع الغنائم والأسلاب، وتحصي الجواهر والذخائر، على حين دعا رستم أولاد ليسمع من بين شفقتي قابوس أمر تتويجه ملكا على مازندران تنفيذًا للوعد الذي قطعه على نفسه من قبل.

وانطلق رستم مع الملك قابوس عائدين إلى الوطن في مواكب رائعة لم يعرف لها مثيل قط..

ومضت الأيام تجري..

وذات يوم... جاء إلى الملك من يقول له: أن حمارا وحشيا كأنه الأسد قد استقر في الصحراء القريبة من مرابط الخيل، وراح يهاجم خيول الملك ويقضي عليها واحدا في أثر الآخر، وأدرك الملك أن ذلك الحيوان لا يمكن أن يكون حمارا وحشيا.. فطلب من رستم أن ينطلق ليعرف الأمر.. ويقضي على الوحش أينما كان..

وركب رستم فرسه «الرخش»، وخرج إلى الصحراء، فمكث أياما ثلاثة يدور في مروجها ومراعيتها.. ولكن الوحش لم يبد شيئا قط..

وجاء يوم رابع.. لم يكذب ينقضي نصفه حتى ظهر الوحش وهو يقترب من مرابط الخيل.. وخرج له رستم من مخبئه فلم يكذب يراه حتى راح يجري في سرعة الريح هاربا.. وأسرع رستم خلفه، ورفع رمحه ليطلقه عليه.. وفي تلك اللحظة اختفى الوحش كأنما قد ابتلعتة الأرض.

وهنا اقتنع رستم أنه لم يكن حمارا وحشيا قط.. ولكنه «أكوان» الجني.. جاء لينتقم لمن مات من الجن في بطاح مازندران..

وقرر رستم ألا يترك ذلك المكان.. وأن يظل مقيما فيه حتى يضطر الجني للظهور من جديد ولم يمض يوم واحد حتى أن أكوان الجني قد خرج من المكان نفسه الذي اختفى فيه. وإذ شاهده رستم انطلق خلفه في سرعة هائلة.. وبدأ سباق عنيف لم تشهد مثله الأرض.. استمر أياما ثلاثة كاملة.. وعندما انتهت الأيام الثلاثة كان الجهد قد أخذ برستم، وبدأ النوم يغالبه.

وانحنى رستم على روضة معشبة. فدخلها ونزل عن فرسه، وخلع لجامه وحط سرجه وأطلقه يرمى.. ثم فرش لنفسه اللبد على حافة ماء العين واتكأ يستريح، فأخذته النوم..

وفي تلك اللحظة ظهر الجني واقترب منه. فلما رآه نائما في سلاحه لم يجرؤ على الاقتراب منه.. ولكن الفرصة كانت سانحة نادرة.. وحتى لا يضيع الفرصة حفر الأرض من حول رستم النائم، ورفع قطعة الأرض كاملة في الهواء. ثم راح يجري به هنا وهناك.. ويفكر في الطريقة التي ينتقم بها منه..

واستيقظ رستم فوجد نفسه على تلك الحال. وندم إذ نسى نفسه فنام، وراح يفكر في طريقة الخلاص من براثن الجني..

وأحس الجني بحركته، وعرف أنه استيقظ، فقال له يخاطبه:

-أيهما أحب إليك.. أن أرميك بين الجبال والصحاري.. أم أن أقذف بك في أعماق المحيط.

وفكر رستم قبل أن يجيب.. وسمع صوتا في أعماقه يقول له:

-إذا هو ألقاك في الجبال والتلال الوعرة تطايرت أوصالك وتحطمت بددا فوق الصخور.. والماء في هذه الحالة هو خير الشرين.. ولكن احذر دهاء الجني.. فأنتك أن قلت له أقذفني في البحر خالفك ولم يرمك إلا على الجبال والوهاد.. فهو سيعمل ضد رغبتك.. فاطلب منه عكس ما تريد..

وقال رستم يخاطب أكوان الجني:

-اطرحني على الجبال وفي الغالب أحطم قلوب السباع وأشهدها على قوتي وجبروتي..

ضحك أكوان في سخرية وهو يقول:

-أما زلت تدعى الشجاعة والجبروت.. إذن لأرمينك في مكان لا ترى فيه حيا ولا ميتا..

أسرع أكوان الجني إلى البحر فألقى برستم فيه. ثم عاد وهو ينفض يديه وكأنه قد تخلص من حمل مخيف..

ولم يكدرستم يسقط في الماء.. حتى أحاطت به التماسيح وسباع البحر تريد قتله.. فاستل يمينه السيف، وراح يضرب هنا وهناك على حين أن يده اليسرى تسبح لتبلغ به الشاطئ..
وخرج رستم من الماء، فخلع سلاحه، واغتسل، ثم وضع السلاح وعاد إلى العين التي سبق أن نام إلى جوارها أول مرة.. وهناك قرر ألا يبرح المكان حتى يظهر الجني من جديد ليلقنه درسا لا ينساه أبدا..

وفجأة ظهر الجني وقال لــــه:

-ألا تزال بك رغبة في القتال والتزال..، أما سئمت تلك الهزائم التي تتوالى عليك.. وتريد أن تعود من جديد لتجلب لنفسك هزائم أخرى..؟

ولم يترك له رستم الفرصة ليتم حديثه.. وفي لحظة.. انقض رستم برمحه في قوة فاخترق قلب الجني قبل أن ينتبه إلى نفسه.. وإذا به ينهار وينحط على الأرض وكأنه الجبل.. ومد رستم يده بالسيف فاجتز عنقه.. وحمل رأسه على سنان الرمح ليدور به في كل مكان من عاصمة قابوس..
واستمر ركب الحياة يسير..

ثانيا- علاقة الأسطورة بالحكاية البطولية :

إذا كانت الخرافة هي أقرب الأقرباء للأسطورة فإن الحكاية البطولية هي أقرب للخرافة
«ولكن الحكاية البطولية تختلف عن الخرافة في أمرين: أولهما: أن أحداث البطولة تختلف رغم

المبالغة والتحويل، وثنائهما: وهو الأهم أن البطل فيها يشكل صورة مثالية عن الإنسان وعما هو إنساني وهي تثير الرغبة في السامع إلى تحقيق هذه الصورة المثالية»⁽¹⁾.

لذلك فإن الإنسان بدأ يتصور بخياله كائنات تستطيع بقواها الخارقة منازلة أعدائه «ومن خلال خيالاته بدأ يستعين بأصحاب الخوارق فيما لا يستطيع أن يفعله بنفسه فصور أنصاف آلهة يستمدون قواهم من السماء وصور أبطالاً خارقين تتمثل فيهم مظاهر القوة عند الحيوان ومظاهر الجبروت عند الآلهة، ومن هنا ظهر جلجامش وأنكيبدو عند البابليين، ورستم عند الفرس وهرقل عند الإغريق وأمثالهم كثيرون»⁽²⁾. هذا النوع من الحكايات يكشف عن محاولة الإنسان المستمرة للهروب من حدود الواقع والبيئة الجغرافية، وأيضاً من حدوده ككائن بيولوجي وعضو في جنس معين بشري وذلك عن طريق إصاقه بنفسه الأعمال الخارقة التي لا يستطيع الإنسان العادي إثباتها. وهناك حكايات بطولية تقص أحداثاً تاريخية أو شبه تاريخية تسمى الحكاية البطولية الإخبارية «ويعتمد هذا النوع الأدبي على عدد من الوقائع التاريخية، ولكنه يراكم فوقها أحداثاً إضافية خيالية إلى درجة يغيب التاريخ معها في ضباب الخيال مثل حرب طروادة ومثلها تغريبة بني هلال في الأدب الشعبي العربي»⁽³⁾.

وتحت هذا المصطلح «الحكاية البطولية» نجد مصطلحين غريبين هما اللاجيندة والملحمة «فاللاجيندة هي قصة غير متحقق من صحتها تاريخياً رغم الاعتقاد الشعبي بصحتها وهي تدور غالباً حول حياة أشخاص متميزين ومحبوبين على النطاق الشعبي وتنتمي قصص حياة وأعمال

(1) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين للنشر، ص 16.

(2) - سليمان مظهر أساطير من الشرق، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية، ص 12.

(3) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى، 1997، ص 17.

وكرامات القديسين إلى هذه الزمرة، أما الملحمة فهي تأليف شعري عالي المستوى يقص سلسلة من أعمال وإنجازات أحد الأبطال، وتجري معالجتها بإطالة وتفصيل على شكل نص»⁽¹⁾.

نموذج الحكاية البطولية: (2)

نمذجنا في الحكاية البطولية اختلف في حقيقته المؤرخون، فقال بعضهم أن وجودها خرافة، في حين يؤكد آخرون أن الأعمال التي تنتسب إليها متداخلة في تاريخ الآشوريين والبابليين الذين عاشوا على نهر دجلة والفرات. أما المنقبون عن الآثار فيرون أن سميراميس آلهة أسطورية شرقية، وأن اسمها ومعناه الحمامة البيضاء، إنما أطلق عليها لأن الحمام احتضنتها عند مولدها وغذتها. ولدت سميراميس لأم هي الربة ديركيتو، ولأن سميراميس ولدت في شكل إنساني كامل، ولم تولد في شكلها الإلهي فقد أثار ذلك في قلبها الرعب. وتجنبنا لنظرة الريبة والشك والمعايرة من الربات الأخرى، فقد حملت ابنتها في ليلة مظلمة إلى البادية حيث تركتها هناك عارية مهملة ليس حولها من شيء على الإطلاق سوى الريح والبرد والزمهرير والجوع.

وكان بيلوس اله نينوى العظيم يطل من عليائه، فرأى الطفلة المسكينة تلقى في العراء بغير سلاح أو معين. فأرسل من السماء رسوله "ينبو" يرعاها ويحميها، ويحمل معه سربا من الحمام ترف بعضها عليها بأجنحتها لترد عنها حر النهار وبرد الليل. وتنطلق الأخرى إلى حيث يتزل الرعاة فيحملن إليها بمناقيرهن نقطا من الحليب يلقينه في فمها لتغذيها وري ظمئها.

(1) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين للنشر، ص 16.

(2) - سليمان مظهر أساطير من الشرق الهيئة العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ص 74.

ومع مر الشهور والسنين، تحولت الحمام إلى الأمكنة التي يضع فيها الرعاة ما يصنعون من جبن، يأخذن منه بمقدار ما تسع مناقيرهن، ليقدمه للطفلة التي عاشت مع حمامها سعيدة لا تعرف قط طعم الشقاء.

وكان الرعاة إذا عادوا في المساء يرون جبنهم منقورا فيندهشون. ولما ازداد ذلك الأمر وتتابع، قرروا أن يتركوا واحدا منهم يرقب المكان على حين أنهم غائبون.

وشهد الراعي الحمام وهي تحط حول الجبن وتلتقط قطعه الصغيرة فتحملها بمناقيرها إلى مكان تطير إليه. وأخير الرقيب رفاقه فتبعوا الحمام حتى وصلوا إلى حيث صبية ذات جمال رائع لم يخلق لغير الآلهة. فأخذوها إلى خيامهم، وانفقوا أن يحملوها معهم حيث يبيعونها في سوق نينوى العظيم.

وحمل الرعاة الصبية الحسنة إلى نينوى. وكانوا قد سموها سميراميس.

وكان يوم وصولهم إلى المدينة يوم موسم الزواج الذي يقام كل عام، حيث تجتمع في السوق الكبير جموع الشباب والشابات قادمة من كل نواحي المملكة، لينتقي عروسا، أو ينتقي صبية يحملها إلى داره فيريها إلى أن تبلغ سن الزواج، فيتزوجها أو يقدمها عروسا لأحد بنيه.

دخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسنة إلى حيث يعرضونها للبيع. وبينما هم يضعونها في أول الصف، إذ شاهدتهم "سيما" ناظر مرابط خيول الملك. وكان عقيما لا ولد له، فهفا قلبه إلى سميراميس، وملاؤه رغبة في تبنيها.

ودعا سيما الرعاة وساومهم على ثمنها. ولما تمت الصفقة حملها إلى منزله حيث ملأ زوجته

فرح كبير بالصبية الجميلة. واعتنت بها وكأها ابنتها وظلت ترعاها حتى كبرت.

وذات ربيع جاء "مينوتس" -قائد الملك ووزيره- إلى مرابط الخيل يتفقدتها. وشهد الوزير سميراميس الحسنة جالسة، ومن عينيها ينبعث النور، فوقف الوزير مبهورا. فدعا الفتاة وسار بها إلى حديقة القصر يتحدث إليها وتتحدث إليه، وراح يسألها من تكون.

ولم تستطع سميراميس أول الأمر أن تجيب، ثم لم تجد إلا أن تقول له أنها ابنة ناظر المرابط الملكية.

ونادى الوزير على سيما، ولم يستطع أن يكذب كما بدا له أن يفعل أول الأمر. واضطر أن يحكي قصتها كاملة للوزير.

وأحس الوزير من طريقة الرجل في الحديث، أنه لا يمانع في تركها مقابل مبلغ كبير، فأخرج صرة من المال قذفها إليه، ثم انطلق بالفتاة في الطريق إلى العاصمة.

وعندما بلغ القصر كان أول ما فعله أن سلمها للمزينات والماشطات، وأخرج لها من خزائنه حليا لا يوجد مثلها إلا في كنوز الملوك.

واحتفل مينوتس بزواجه كما لم يحتفل أحد من قبل أبدا. وخضع لرغبات زوجته سميراميس، واحترم أفكارها، وصار يأخذ بآرائها في كل ما يلزم به من أحداث ومهام.

ومرت الأيام وسميراميس كل شيء في حياة الوزير وحياة الجماهير أيضا، وكان السبب في تعلق الشعب والوزير بالعروس الإلهية، هو ذلك النصر الذي استطاعت أن تقدمه للمملكة كلها.

عندما عرفت كيف تسقط أضخم حصن من حصون الأعداء.

كان ذلك يوما خالدا من تاريخ البلاد. وكان الملك "نينوس" قد انتهى من تشييد عاصمة ملكه، وراح يبحث عن السبيل إلى أعجاد جديدة يحققها لنفسه ولمملكته. فما مضت أيام حتى كان

استقر رأيه مع وزيره مينوتس على تجنيد جيش كبير ضخم، يقتحم ممالك أخرى مجاورة. وبعد أيام شهدت نينوى خروج جيش عظيم يخترق شوارعها ويبتعد عنها ليجاوز حدود البلاد نحو الشرق.

كان الجيش ضخما بالغ القوة، فلم يكن عجيبا ألا تثبت أمامه بلدة أو جيش. إلا أن الذي أثار نينوى وأغضب ملكها هو أن ذلك الجيش وعلى رأسه القائد والملك نفسه، عجز عن اقتحام عاصمة الأعداء "بكتريا" لأيام طويلة فشلت فيها الهجمات على الأسوار المحيطة بالقلعة الشاخنة.

ومع ذلك فقد أبى الملك إلا أن يستمر على حصارها ولو أودي ذلك بالجيش كله. ولما طالت غيبة الوزير على زوجته سميراميس، استدعاها لتوافيه في ميدان القتال.

وحضرت سميراميس، ولما طلع الصباح وقفت على باب الخيمة تتأمل العاصمة التي أنهكت الجيش. ولاحظت أن الهجوم كان موجهًا إلى قسم المدينة القائم في السهل، لا ضد قلعتها، مما جعل البكاترة يحرسونها بقليل من اليقظة. وخطرت لها فكرة ألا يمكن أن تنهار مقاومة الأعداء لو هوجمت القلعة الشاخنة مباشرة.

ولم تمض إلا لحظات حتى عرفت كيف تقنع زوجها بخطتها التي رسمتها. وانتفضت القلعة بعد ساعة من بزوغ الشمس على هجوم عارم، تشنه عليها فرقة قوية من الجنود اختارهم سميراميس بنفسها وتقدمتهم إلى اقتحام القلعة الشاخنة.

وانقضت ساعة وبعض الساعة، وانتبه الملك والوزير والجيش جميعًا، فإذا سميراميس واقفة على قمة القلعة تلوح بذراعيها أن تقدموا.

وعرف الكل أنه النصر، وأدركوا أن العاصمة قد باتت بين أيديهم. والتفت الملك إلى قائده يسأله من تكون هذه المرأة؟ وشعر مينووس بدنو الكارثة، فسكت في رعب كأنه لم يسمع.

وكرر الملك السؤال، ولم يجد القائد بدا من أن يجيب:

أها زوجتي يا مولاي.

وعاد الملك إلى العاصمة ودخل قصره وتفرق الجند والناس. وأرسل الملك إلى قائده يأمره بدعوة سميراميس إليه. ولم يستطع الوزير إلا أن يجني هامته.

أما سميراميس، فقد وجدتها فرصة للوصول إلى الجند الذي طالما حلمت به. وحملت نفسها على محفة يرفعها أربعة من العبيد السود، وتسايرها وصيفتان جميلتان، هذه راكعة وراءها تروح لها، وتلك ساجدة أمامها تليي الرغبات.

وعندما دخلت على الملك، ووقعت عليها عيناه في اتكائها والتفاتتها وزينتها وتألق طلعتها، انهار قلبه.

ولما صاروا وحدهما، اتفق معهما الملك على أن تترك زوجها لتكون له وحده.

صعق الوزير من رغبة الملك في الزواج من سميراميس إلا أنه لا يملك من الأمر شيئاً. فترل عند طلبه، أما سميراميس فقد كان القصر في انتظارها كما لو لم ينتظر ملكة من قبل أبداً. وعندما دخلته كانت تعلم أنها لن تكون فقط أولى المحظيات، بل ستكون هي وحدها الملكة، ولا محظيات سواها بعد.

فقد عرفت سميراميس الداهية كيف تجعل الملك يكتفي بها هي وحدها، ويطرد محظيات القصر ونساءه كلهن، كأن الدنيا لم يعد فيها غير سميراميس. ورفعها الملك من محظية إلى ملكة. وولدت له الملكة ولدا سماه ميناس، وظلت الحياة تسير.

وعرفت سميراميس كيف تجعل من نفسها كل شيء في قصر الملك. وعرفت كيف تجعله لا يطيق فراقها لحظة، حتى ولو كان خروجاً لحرب أو لاختتام ثورة فحسب.

غير أن خروجها في كل غزواته ملاًها كراهة له واحتقاراً. فقد كان يستعمل في حروبه أبشع وأقسى أنواع التنكيل والإرهاب تماماً ككل من سبقوه من ملوك بابل وآشور، فكيف تطيق هي التي رعتها حمامات السلام في البيداء مشاهد الدم المسفوك هنا وهناك، وفي كل مكان.

وكان آخر ما شهدته من خروج الملك، عندما خرج إلى بلاد الطورانيين الثائرين عليه. فعندما ظفر بأعدائه وفتحت له أبواب مدينتهم، أمر بسلخ جلود كل الشبان وهم أحياء، وعلق الجلود على جدران بناها أمام أبواب المدينة الثائرة. ولم يكتف الملك الوحش بذلك، فقد أمر بقطع رؤوس الثوار، ونظمها في حبل على شكل عقد، وحكم على من بقي حياً من الرجال بأن يأكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم. أما من أبي فقد قطعت أنفه وأذناه وشفته. ثم سيق مع الآخرين إلى العاصمة، ليدخل بهم دخول الغزاة المنتصرين.

ولم تطق سميراميس كل تلك الفظائع، وكرهت الرجل الذي عرفت فيه أقصى من وجد على ظهر الأرض ودفعته تلك الكراهة-جنباً إلى جنب مع حب الطموح والسيطرة- إلى أن تسعى للتخلص من الزوج، عن أي طريق.

وكانت سميراميس تعرف الطريق جيدا. وكان مساء، وبينما الملك جالسا في مقصورتها، وحدث سميراميس أن الوقت قد حان لتطلب ما تريد. وكان طلبها هو أن يسلمها سلطته كلها لأيام ثلاثة، تجلس فيها وحدها على العرش، ويكون لها أثنائها أن تأمر فتطاع، ولو كان الأمر صادرا إليه هو نفسه.

وابتسم الملك، ثم ضحك، ثم كاد يستلقي لطول ما ضحك، ثم قال لها:
لك ما تريدين.

وجلست سميراميس على عرش نينوى، تأمر وتنهاى وتحكم، وانقضى اليوم الأول بسلام. وطلع صباح اليوم الثاني من الأيام الثلاثة التي منحها لها الملك، فكان أول أمر أصدرته للجنود أن يقبضوا على الملك. وأطاع الجنود، واقتيد نينوس إلى السجن أمام عينيها. وعندما راح يستعطفها في ذلة وخضوع، ابتسمت له ساخرة، ثم انطلق من بين شفيتها أمر جديد إلى الجنود بأن يذبحوه. وأثبتت سميراميس أنها لم تعد بعد ابنة الحمام، وأنها قد أصبحت في بابل وآشور. أكثر قسوة من كل طغاة بابل وآشور.

وعلم الشعب بما صنعته الملكة فهاج، وتألبت الجماهير وتزاحفت إلى القصر تهتف بالنار. وتنادى برأس الملكة.

وتلقت سميراميس نبال الثورة وهي في الحمام، فلم تدعروا ولم تأخذها الرعدة. بل خرجت من الحمام في شعر منفوش، وغدائر تنسدل على كتفيها كريش الطاووس، وأطلت من شرفة القصر.

وتحول الصخب فجأة ليصير همسا ضئيلا، وصمت الضجيج ليتحول بعد ذلك عبادة وصلاة للملكة القاتلة. وسجد الجميع ثم تفرقوا، وقد أصبحت الملكة في مقام الآلهة.

ومنذ ذلك اليوم، جلست سميراميس وحدها على عرش آشور تحكم دولة مترامية الأطراف، وتقود الشعب كل يوم إلى مجد جديد. واستمرت تحكم وحدها عشرين عاما.

ولم يعد ينقصها بعد كل الأجداد التي صنعتها للشعب إلا أن تتحول إلى الفتوح، وتحطم كبرياء كل الثوار.

وصنعت سميراميس جيشا لم تر آشور مثله قط. زحفت به لتخضع آسيا وميديا وفارس وأرمينيا وفينيقيا ومصر وليبيا. ولم يعد هناك من بلد يقف في وجهها إلا الهند. ذلك البلد المسحور الذي تحدثت عنه كل القرون السابقة.

ثالثا- علاقة الأسطورة بالحكاية الشعبية :

كذلك الحكاية الشعبية لا تحمل طابع القداسة والاعتقاد ولا تتطرق - كما هو شأن الأسطورة- إلى الموضوعات الكبرى مثل الخلق ولا قضايا الإنسان المصيرية، مثل الحياة والموت بل تقف عند حدود الحياة اليومية والأمور الدنيوية، فموضوعاتها تكاد تقتصر على مسائل العلاقات الاجتماعية والأسرية منها خاصة.

«والعناصر القصصية التي تستخدمها الحكاية الشعبية معروفة لنا جميعا، لذلك يسهل تمييزها عن الأسطورة ومن هذه العناصر مكر النساء، مكائد الزوجات وقسوة زوجة الأب وغيره الأخوات في الأسرة من الأخت الصغرى... الخ.

والحكاية الشعبية تتصف بالواقعية إلى أبعد الحدود وتركز على أدق تفاصيل وهموم الحياة اليومية لكن هذا لا يعني أن العناصر الخيالية معدومة تماما في الحكاية الشعبية فهذه العناصر قد تستخدم في

الإشارة والتشويق عندما يقابل البطل غولا أو جنيا، فيستخدم حيله وذكاءه للإيقاع به»⁽¹⁾. ولا تخلو الحكاية الشعبية من أهداف، فبالإضافة للتسلية والإمتاع فهي تحمل في جوهرها رسالة تعليمية تهذيبية أخلاقية مثل جزاء الخيانة، فضل الصدق والتواضع والإيثار ونبذ الكذب.

نموذج الحكاية الشعبية:

اليتيمة الرحيمة:⁽²⁾

في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، اعتاد سكان السماء من آلهة وأرواح، إذا حل بهم الملل أو رغبوا في التفكه، نزلوا إلى الأرض لاختبار بني البشر، في ذلك الزمن المتعب، كانت تعيش في إحدى القرى بنت صغيرة يتيمة.

كانت تعمل خادمة عند بخلاء، لم يكونوا يعطونها ما يكفيها من الطعام أو اللباس، لتكسو نفسها، وعندما كانت تسوق الأبقار لترعى، لم تكن واحدة من بنات القرية، تقبل أن تلعب معها، وفي كثير من الأحيان كن يطردنها لأنها كانت وسخة ترتدي أسمالا بالية، وكانت جائعة تطلب من الآخرين الطعام الذي أحضروه معهم إلى المرعى.

رأى سكان السماء هذه الفتاة وما حل بها، فقررت إحدى الأرواح النزول إلى الأرض، واتخذت شكل شحاذ مجذور الوجه، يرتدي الثياب العتيقة الممزقة. هكذا اقترب من البنات، وكان يمشي بصعوبة، ووجهه المجذور مليء بالقروح كربه المنظر، ففرت الفتيات اشمزازا من منظره، رجا

(1) - سليمان مظهر، أساطير من الشرق، الهيئة العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ص74.

(2) - نزار عبد الله، أساطير من فيتنام، دار المتنبي، دمشق، سوريا، ط1، 1999، ص61.

المتسول أن توصله إحداهن إلى الضفة النهر الأخرى، لأنه يخشى أن تجرفه المياه لضعفه انصرفن يولولن مرتعبات والاحتقار باد على وجههن، ثم رحن يبصقن على الأرض.

وحدها البنت اليتيمة لم تفر، بل حملت الشحاذ على ظهرها إلى الضفة الأخرى من النهر، مدهوشة من خفة وزنه كأنه ريشة.

عندما وصلا، أخرج الشحاذ من جيب سرواله مرآة معدنية قميئة معتمة وأعطائها للفتاة قائلاً:

«إحفظيها في زنارك، وانظري إليها كل صباح ومساءً».

شكرته البنت وخبأت المرآة بعناية، وراحت تنظر إليها كل صباح ومساءً، كانت المرآة تزداد كل مرة وضوحاً وإشراقاً، حتى صارت ترى صورتها واضحة فيها وصارت كلما نظرت إليها، ازدادت بشرتها نعومة وعيناها اتساعاً وسواداً وبريقاً وراحت ثيابها مهما كانت عتيقة أو قدرة، تصبح جديدة ونظيفة حين ترتديها. ما عادت تشبه الفقيرات وإنما بنات الأمراء، وهكذا أصبحت أجمل بنات القرية، شاهد الجمع كيف أمست البنت الصغيرة البشعة، تزداد جمالاً يوماً بعد يوماً، وكيف ترتدي ثياباً، لا شك أنها خيطة خارج القرية، فغاروا منها وحسدوها، ما الذي يجعلها تزداد جمالاً وحلاوة وأناقة ردت البنت:

«أنظر في المرآة»

«تنظرين في المرآة؟»

ضحكت البنات منها ساخرات.

قصت البنت اليتيمة عليهن كامل قصة الشحاذ، الذي طلب توصيله إلى الناحية الثانية من النهر، والمرآة التي أهداها إياها، وكيف إذ تنظر فيها تزداد جمالا كل يوم، لم يكن مصدقات كلامها، لكنهم قلن لأنفسهم: ما ضرر إن فعلن مثلها؟ هرعن إلى النهر، وانتظرن آناء الليل وأطراف النهار، وصبرن تحت المطر المنهمر أو الشمس المحرقة، أملا في أن يزددن حلاوة وأناقة كاليتيمة.

ذات يوم، بينما كن جالسات على الضفة النهر، قررت الروح الهبوط إلى الأرض وأخذت شكل متسول، وتكرر ما حصل في المرة الأولى، رجا البنات أن يحملنه إلى الضفة الأخرى، فأثار منظره البشع استمزازهن في البداية، ثم تراحمن كل منهن تريد أن تكون الأولى، ورحن يتدافعن، حتى كدن أن يمزقن المتسول الفقير، قررن أخيرا تجهيز نقالة والاشترك بحملها، حتى يتقاسمن الهدية، ثم هرعن إلى العمل بحماس منقطع النظير قطعت إحداهن أعواد القصب، والثانية جمعتها والثالثة راحت تربطها وتدير من سعف القصب قاعدة، وأخرى راحت ترعى المتسول، وهكذا تم إنجاز النقالة بسرعة مذهلة، رفعن المتسول ووضعنه على النقالة وحملنه عبر النهر، رغم أنه كان أثقل من أي شيء حملنه.

عندما وصلن إلى الضفة الأخرى، أعطى كلا منهن مرآة معدنية عتيقة، لأنه كما قال لهن، لا يملك شيئا آخر، أظهرن فرحهن، وهن يطمئن أنفسهن بأن عملهن لم يذهب سدى، لكنهن لم يلحظن ابتسامة المتسول الخفية، خبأت الفتيات كل منهن مرآتها في زيارها، وحين رحن ينظرن إليها كل صباح ومساء، ينتظرن أعجوبة الجمال، نلن العقاب على نفاقهن، كانت اليتيمة، تزداد جمالا يوما بعد يوما أما البنات فكن يزددن قبحا، وراحت أنوفهن تسمن وتنعقف وأمسست شفاههن كالجلد،

والشعر كقش الرز وتحلقت تجاعيد قبيحة حول العيون والفم ، وعندما كن ينظرن إلى الشمس، كانت عيونهن تدمع.

وهكذا صرن ضحيرات وسخات قبيحات كالحشرات المرمية على جنبات الطريق ولم تتمكن إحداهن من الحصول على زوج، أما البنت اليتيمة الفقيرة التي ازدادت جمالا يوما بعد يوم، فقد كان بوسعها أن تتزوج أميرا، لكنها ظلت متواضعة وتزوجت شابا فقيرا شريفا، وعاشت معه بسعادة وحبور.

رابعاً- علاقة الأسطورة بالفلكور:

واستخدمنا كلمة فلكور، ولم نستخدم ما يقابلها في العربية من ترجمات، مثل المأثورات الشعبية، أو الأدب الشعبي أو غيرها وذلك للدقة العلمية، وخاصة أن مصطلح فلكور ذاعت تسميته وأصبح مصطلحا علميا.

وقد استخدمه علماء الأنثروبولوجيا للإشارة إلى «التراث غير المكتوب الذي تعبر عنه القصص الشعبية، والأغاني والأمثال الشعبية، كما يستخدم المصطلح أيضا ليشير إلى العلم الذي يدرس هذه المواد بالطرق التي تعالج بها المواد الاثنوغرافية»⁽¹⁾.

ويقول طومسون: «إن الفلكور هو التراث، إنه شيء انتقل من شخص إلى آخر وحفظ إما عن طريق الذاكرة أو بالممارسة، أكثر مما حفظ عن طريق السجل المدون، ويشمل الرقص، الأغاني والحكايات، قصص الخوارق والمأثورات والخزعبلات ، كما أنه يشمل كذلك دراسة العادات والممارسات الزراعية المأثورة والممارسات المتزلية، وأنماط الأبنية وأدوات البيت والظواهر التقليدية

(1) - قاموس علم الاجتماع، محمد عاطف غيث، دار المعرفة الجامعية، ص 190.

للنظام الاجتماعي». لم يلق هذا التعريف إجماعاً لأنه أغفل جانباً مهماً يتناوله الفلكلور وهو المعتقدات الشعبية. من هذين التعريفين، نخلص إلى أن الفلكلور يهتم بدراسة:

إضافة إلى المعتقدات الشعبية (مثل الاعتقاد في الجن والغيبيات).

فنون المحاكاة مثل الرقص الشعبي بكل أنماطه وبعض الألعاب، الأدب الشعبي من شعر ونثر بكل ما يحوي من قصص وأساطير وأمثال وأحجيات.

كما يشمل دراسة الثقافة المادية من الآثار والأدوات الشعبية المستخدمة في مجتمع من المجتمعات، سواء أكانت لباساً أو أدوات منزلية أو زراعية أو غيرها.

العادات والتقاليد الشعبية مثل ما يتعلق بالاحتفالات والمناسبات والأسلوب السائد في مجتمع ما كعادات الزواج والأعياد، وطرق استقبال الضيوف وتوديعهم. إن الفلكلور عامل مهم في ثقافة الشعوب، فقد جاء تلبية لحاجة المجتمع، لحفظ عاداته وتقاليدِهِ وغرسه في نفوس الأجيال القادمة. ويصدق هذا القول على الأساطير. «فكلاً من الأساطير والقصص الفلكلوري تبنى من مواد الحياة اليومية. فمن الواضح أن هذه الأشكال من النشاط الفني ذات قيمة عظيمة في إلقاء الضوء على الميول الثقافية السائدة في شعب من الشعوب. وبتفسير القصص الفلكلوري والأساطير كثيراً ما يتمكن الخبير من وصف الثقافة وصفاً على جانب من الدقة، فيما يختص ببعض وجوهها على الأقل»⁽¹⁾. لذلك فقد زاد الاهتمام بدراسة الفلكلور متضمناً الأساطير في الآونة الأخيرة من قبل الدارسين والباحثين فيه، سواء بصورة فردية أو من ناحية بعض الجهات التي تهتم بهذا العلم، كالهيئات والمنظمات التي أخذت على عاتقها مهمة دراسة الفلكلور وتوثيقه.

(1) - محمد الخطيب الأثولوجيا، دراسة عن المجتمعات البدائية، منشورات دار علاء الدين، الطبعة الأولى، 2000 ص 196.

لما لذلك من أهمية كبيرة في دراسة خصائص المجتمعات والبحث في عوامل تطور الأمم بالعودة لتراثهم ودراسة خصائصه واستجلاء أسرارهِ وغموضه.

نموذج الفلكلور:

ذكر شوقي عبد الحكيم نموذجا للفلكلور بصيغته المحلية العامية وأصله العربي الفصح الذي يعود إلى **2000 سنة** «إن النص الشفهي المصري لهذه الحكاية، أكثر تحديدا وأصالة لذا سأورده كاملا، كما حققته من ستة مصادر مختلفة أكملها نص سمعته من مصدر بجوار بحيرة قارون باسم الديب والتمساح، وهذا هو النص.

«ديب مصاحب تمساح، ومتعود يزوره كل يوم، يرحلو على شط بركة قارون، وينط يركب على ظهره، والتمساح يفسحه على وش البركة، وبعد كده يرجعه على الشط آخر النهار. مرات التمساح-وليفته- زعلت واتقهرت وغارت من الديب.

وفي ليلة عملت عيانة. ولما جاء التمساح يسألها: عيانة بايه؟ قالتلوا الحكيم قاللي دواكي على قلب ديب.

التمساح قالها: بسيطة الديب صاحي، وبكره الصبح حاييجني وأجيلك قلبه. وتاني يوم الصبح، لما الديب جا يزور التمساح، ونط ركب على ظهره زي عوايده، التمساح جابو في وسط البحر، وحكالوا حكاية مرته فالديب قاللو:

«لا مؤاخدة يا تمساح، أنا النهاردة سايب قلبي في البيت، رجعي ثاني للبر، وأنا أروح أجيلك قلبي من البيت وآجي حالا».

التمساح رجع على البر، والديب أول ما حط رجله على البر فطس على روحه من الضحك، ولما التمساح سأله:

«بتضحك ليه؟».

الديب قالوا.

-بضحك عليك.

عليل ما دويت.

وصاحب ما بقيت.

وسأورد هنا النص العربي لهذه الحكاية، والذي يعد أقدم نص مدون، كما يجمع على هذا ثلاثة من كبار علماء الفولكلور، هم: د.موسى جاستر، الذي أورد هذا النص العربي في كتابه «قصص الطيور والحيوانات». والبروفسور لويس جتبرج وبازل ف.كرتلي، وملخص النص العربي المدون كما يلي:

« ما أن انتهى الإله من خلق العالم، حتى أمر ملاك الموت أن يلقي في البحر بمجموعة متنافرة من الحيوانات، لكي يعيش كل حيوان مع ما يخالفه من حيوانات.

وتمكن الثعلب بمكره ودهائه من الافلات من قبضة ملاك الموت، وحتى لا يلقي به في البحر.

وفي نهاية العام، أحصى الحوت «ملك البحر» جميع حيواناته، لكنه افتقد الثعلب، فأرسل

الحوت برسله من سمك البحر لإحضار الثعلب، وكان قد سمع بمكره وشدّة دهائه، فرغب في أن

يحصل على قلبه ويلتهمه، حتى يصبح له ما يمتاز به الثعلب من حنكة ودهاء.

وعندما وصلت الأسماك، رسل الحوت إلى الشاطئ، والتفت بالثعلب، احتالت بدورها عليه، فقالوا له أن الحوت ملك البحر قد مات، وأنهم جاؤوه لينصبوه ملكا عليهم عوضا عنه، وكان أن امتطى الثعلب ظهر إحدى الأسماك، لكنه وبعد أن غوطت به الأسماك داخل البحر، خاف وتشكك في الأمر، ولما طلب منهم إيضاحا لحقيقة ما يحدث، أخبرته إحدى الأسماك، بحقد الحوت عليه، نظرا لما يتمتع به من دهاء وسعة حيلة، لذا رغب في التهام قلبه، ليصبح وريثه في الدهاء.

هنا أجاب الثعلب الأسماك، بأنه كان من واجبه تذكيره وهو على الشط لكي يحضر معه قلبه، نظرا لأن من عادة الثعالب، أن تترك قلوبها في منازلها قبل الخروج إلى الخلاء. وكان أن أعادته الأسماك إلى الشاطئ، لكي يسرع ويحضر قلبه، لكن ما أن وضع الثعلب قدمه على البر، حتى سخر من غباء الأسماك التي تعتقد أن مخلوقا بدون قلب يمكن أن يعيش. وكان أن فتك الحوت برسله من الأسماك الأغبياء، والتهم قلوبهم»⁽¹⁾.

وبهذه الحيلة نجا الثعلب من الحوت. وتعتبر هذه الحكاية أشهر حكاية حيوان من فلكلور شعوب كل العالم.

بعد الاطلاع على هذه الألوان الأدبية وتمعننا فيها، نجد أن ثمة صلة لها بالأسطورة وأن من أكثر تلك الصلات بروزا «هو أنها تشترك جميعا في كونها حفريات للذاكرة الجمعية وأنها نتاج لمخيلة واحدة تهدف إلى البحث عن إجابات لأسئلة الواقع حولها وأخيرا في كونها تشكل معا مصدر من

(1) - شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية، دار ابن خلدون، الطبعة الثانية 1983، ص ص

مصادر الإبداع الإنساني أو وسيلة للتعبير عن رحلة طموح إلى الزمن أجمع (الزمن الأبدي) إلى المكان أجمع (المكان الأبدي)»⁽¹⁾.

إلا أن الأسطورة تختلف عنهم في نقطتين رئيسيتين:

«الأولى، أن الأسطورة تفهم في موطنها الأصلي على أنها قصة حقيقية. وتقدم رواية أساسية وشاملة عن موضوعها، سواء كان هذا الموضوع يتعلق بأصل أو علة العالم، علة الموت، معنى الحركة، أو بنية الهيكل. والثانية، أن الأسطورة تعد أكثر شمولية وأساسية، من حيث أنها ترجع بمجتمعها إلى حقيقته الأصلية أو البدائية، وهي حقيقة ليست سابقة في الزمان فقط، بل مختلفة كيفيا من حيث المكان، الزمان، ونوعية الوجود كذلك. وهذا الزمان البدائي هو مستودع النماذج التي تتضمن المعلومات والخبرات وأوجه النشاط الهامة التي يتركز عليها المجتمع الحاضر»⁽²⁾.

(1) - جون هاليري وآخرون، نظرية الرؤية، مقالات جديدة، ص 133.

(2) - محمد عباس، أفلاطون والأسطورة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، سنة الطبع 2008، ص ص 10-11.

الفصل الخامس

المعالجة التطبيقية لدراسة النظام

الاجتماعي الآشوري - نموذجاً-

أولاً: إجراءات المعالجة المنهجية لموضوع الدراسة

1- دراسة تاريخية عن الإمبراطورية الآشورية وشعبها

2- المنهج المطبق في موضوع الدراسة

ثانياً: دور الأسطورة الدينية في بناء

1- النظام الديني

1-1- المعتقدات

1-2- الأخلاق

1-3- التشريع

2- نظام الأسرة

2-1- الزواج

2-2- الطلاق

2-3- الميراث

2-4- التبني

3- النظام الاقتصادي

3-1- الزراعة

3-2- الآفاق التي فتحتها الزراعة

4- النظام السياسي

4-1- السلطة

4-2- فرض النظام

4-3- تشكل الجيش

أولاً- إجراءات المعالجة المنهجية لموضوع الدراسة :

1-دراسة تاريخية عن الإمبراطورية الآشورية وشعبها :

لا تخلو جماعة أو مجتمع من المجتمعات مهما كان بدائيا من وجود نظام اجتماعي يهدف إلى تحقيق استقرار المجتمع واستمراره، وإلى المحافظة على حقوق الأفراد وأرواحهم، لذا فالتنظيم ظاهرة لازمت المجتمع الإنساني منذ وجد على الأرض.

فلا يمكن للأفراد أن يعيشوا في جماعة بأمن وسلام إلا إذا توفر لهم قدر كاف من التنسيق والتكامل الوظيفي والتعاون، ولا يكون هذا إلا بصياغة قواعد ومبادئ وأصول وإجراءات. والنظام هو شكل من أشكال القواعد والإجراءات الجزائية والأساليب الضابطة أو الموجهة للسلوك الاجتماعي.

ومن هذه القواعد أو الإجراءات أو الأساليب نجد الأسطورة الدينية وسيلة لها دور حيوي وفعال في الحياة الاجتماعية، من حيث أنها تعد بمثابة القوة الموجهة للمجتمعات البدائية والمتحضرة، إذ أن لها سلطانا على النفوس ومقدرة على تثبيت الأفكار والمعتقدات، كما لها علاقة وطيدة بالطقوس التي تقوم بلم شمل الأبناء على روح الجماعة.

ولا يزال دور الأساطير فعالا أيضا في المجتمعات المتحضرة؛ إذ تعد بمثابة القوة الدافعة للحضارة الإنسانية، وذلك أنها الحاوية الناقلة للتقاليد والعادات، فإذا ما أتضح عدم رضا أفراد المجتمع عن أحد الأنماط الاجتماعية سواء كان هذا النمط ديني أو دنيوي، فإن الأساطير تعمل على إعطاء هذا النمط الشرعية والثبات، ومن هذا المنطلق فإنها تعد إحدى وسائل الضبط الاجتماعي من حيث توصيل الامتثال للأنماط السلوكية المقبولة لأفراد المجتمع.

فالأسطورة الدينية مضمونا محددًا، وهذا المضمون له دور محدد فهو يعمل على تقوية إيمان وبناء القناعات القيمة لدى الفرد لكي يشارك باقي أفراد المجتمع، أو يعمل على توجيه سلوكه في اتجاه معين ليتكيف مع الجماعة.

و الباحث الاجتماعي لا يرغب فقط في معرفة جوهر الأسطورة ومضمونها وإنما يتطلع لمعرفة دورها في حياة الإنسان والمجتمع من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والحضارية بشكل عام.

وقبل استعراض دور الأسطورة في بناء النظام الاجتماعي الآشوري لا بد من الإشارة إلى الظروف الثقافية التي انبثقت منها الأسطورة.

لقد أظهرت الحفريات الأثرية في مواقع المدن القديمة في وادي دجلة والفرات أن هذه المنطقة المعروفة باسم «سومر وأكاد» قطنتها منذ ما يقارب **4000 ق.م** عام «شعوب عرفت باسم السومريين، وبميل بعض الباحثين إلى الرأي القائل بوجود علامات على استيطان أبكر من ذلك؛ ولكن من المؤكدات أن تلك الحضارة كانت متطورة، وذلك مما تم الكشف عنه في عدة مواقع مثل «أور و إريخ وكيش» حيث تعود الحفائر لعصر السومريين، «ويظهر أنهم قد هبطوا إلى الدلتا من منطقة جبلية في الشمال الشرقي من بلاد الرافدين، كما تظهر أساطيرهم أنهم قدموا من بلاد يختلف كل الاختلاف عن البلاد التي وجدوها في موطنهم الجديد، كان شكل الكتابة المسمارية من ابتكارهم... وكانت لغتهم من النمط المتلازم، الناشئ عن إيجاد جملة عناصر، ولا يعرف شيء

مؤكد من فروعها وانتساباتها الألسنية وتدل مخلفاتهم كما تصورها الحفريات في أور على حضارة ريفية متطورة ذات نمط زراعي، ومعابد فخمة وكهنة وشرائع وأدب وميثولوجيات غنية»⁽¹⁾.

تعرضت هذه المنطقة (سومر وأكاد) إلى موجتين من الغزو الشامي.

الموجة الأولى: من الغزو قادها سرجون الأكادي الذي استطاع أن يقضي على الدولة السومرية، وأن يقيم مكانها الدولة الأكادية التي امتازت بدورها تحت الغزو الكوتي، وبعد ضعف الكوتيين عاد السومريون مرة ثانية للسيطرة بعد مرور حوالي **225عاما**، «إذا استطاع السومريون، عند ضعف الكوتيين حوالي عام **250ق.م** بقيادة كوديا حاكم لاغاش بالعودة إلى الظهور في المنطقة حيث أسس سلالة حاكمة للمدينة، ثم تمكن أوتوكيغال حاكم أوروك (بين **2120-2113ق.م**) من القضاء على الكوتيين بحدود عام **2120ق.م** وانتقلت بعدها السيطرة السومرية إلى مدينة أور، حيث استطاع الملك المشرّع «أورنامو (**2113ق.م-2096ق.م**) تأسيس السلالة السومرية الحاكمة الثالثة في مدينة أور حوالي **2113ق.م** مع ظهور واضح للتأثير الأكادي فيها، إذ لوحظت سيطرة اللغة الأكادية وهي إحدى الفروع الهامة من عائلة اللغات السامية -التي تعد اللغة العربية أقدمها- وأصبحت الثقافة والحضارة بشكل عام متناسقة بين السومرية والأكادية»⁽²⁾.

(1) - صمويل هنري هووك، بحث في الأساطير منعطف في المخيلة البشرية، ترجمة: صبحي حديدي، دار الحوار للنشر والتوزيع سوريا اللاذقية، الطبعة الأولى 1983، ص15.

(2) - عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة المؤسسة الجامعية للدراسات والنسر والتوزيع، ص122-123.

أما الموجة الثانية: من الغزو الذي تعرضت له البلاد فقام به شعب يدعى العموريين أو الأموريين، «فنتج عنها تأسيس السلالة العمورية الأولى في بابل عام **1895 ق.م** على يد سومو أبوم، ونهوض بابل تحت حكم حمورابي (حكم ما بين **1792 ق.م** - **1750 ق.م**).

الذي استطاع إعادة توحيد الإمبراطورية في كامل مناطق بلاد ما بين النهرين، وقام بوضع تشريعه المشهور باسمه والمعتبر أهم تشريع جاء من العصور القديمة. في هذه المرحلة البابلية، كثرت كتابة الأساطير المختلفة، وأهمها كتابة ملحمة جلجامش وأسطورة الطوفان البابلية، وقصة بدء الخليقة البابلية المعروفة بأسطورة "إينوما إيليش" ملحمة الخلق أو أسطورة نشأة الكون⁽¹⁾.

وإلى القبائل العمورية يرجع أصل الأشوريين الذين كانوا «يتكلمون بلهجة من لهجات اللغة الأكادية، كما استخدموا الخط المسماري الذي اخترعه السومريون، وطوره الأكاديون، وكانت النصوص المسمارية السومرية تطلق على المنطقة التي استوطنتها هذه القبائل (العموريين) بلاد آشور. وبعدها أطلق اسم آشور على إلههم القومي الذي اعتبروه فوق جميع الآلهة الأخرى»⁽²⁾.

ولقد استطاع الآشوريون أن يقيموا لأنفسهم «مستعمرات، وعلاقات تجارية مع الأناضول الملاحق لبلادهم، مما سمح بنقل عناصر حضارية آشورية، كان أبرزها استخدام الخط المسماري في كتابة اللغة الحثية، وفي نفس مرحلة العصر البابلي القديم المرحلة الممتدة بين سقوط أور (2006 ق.م) ونهاية سلالة بابل الأولى (1595 ق.م) استطاع شمسي أدد الأول -أحد زعماء

(1) - المرجع نفسه، ص 124.

(2) - عمر محمد صبحي عبد الحفي، المرجع السابق، ص 122-123.

العموريين الآشوريين (عام 1814 ق.م) من تأسيس سلالة حاكمة في آشور بسطت حكمها على المنطقة الشمالية والغربية من العراق إلا أن حمورابي استطاع أن يقضي عليها حوالي عام 1753 ق.م ويضع المنطقة بكاملها تحت حكمه»⁽¹⁾. إلا أن ضعف الملوك البابليين الذي ورثوا إمبراطورية حمورابي أدى إلى القضاء على الدولة البابلية الأولى (1595 ق.م) على يد الكشيين القادمين من الجبال الشرقية الذين احتلوا البلاد بسهولة حيث بقيت السلطة بأيديهم حتى سنة (1157 ق.م).

وتعتبر هذه الحقبة من حكم الكشيين لبابل (1595 ق.م - 157 ق.م) من أكثر الحقب التاريخية غموضاً لندرة الكتابات والآثار الخاصة بها.

«وكان اعتلاء الملك الآشوري «أدد-نراري عام (911 ق.م) بداية عصر جديد عرف بالعهد الإمبراطوري، وهو العهد الذي عرف قيام الحضارة الآشورية، وإحدى أهم الحضارات في الشرق الأدنى القديم، إذ كانت أقوى دولة في التاريخ القديم؛ حيث تميزت بالتطور الهام والكبير في تنظيم الإدارة، وخاصة تنظيم الجيش الذي عرف مرحلة مختلفة متطورة عن المراحل التي عرفتتها جيوش الدول القديمة. «وعرفت الإمبراطورية الآشورية مراحل ازدهار عامرة ومراحل صعبة كانت تُدخل ملوكها في حروب متعددة في مختلف المناطق للحفاظ على وحدة الدولة، واشتهر من بين ملوكها «سرجون الثاني» الذي سبى يهود إسرائيل، ودمر عاصمتهم «السامرة» كذلك اشتهر من ملوكها «سنحاريب» الذي دمر عاصمة اليهود الثانية «يهوذا» و«أسرحدون» الذي

(1) - المرجع نفسه، ص 125.

استطاع أن ينتصر على الدولة المصرية بفتحها مدينة ممفيس عاصمة مصر السفلى وتبس عاصمة مصر العليا»⁽¹⁾.

وبعد أن قامت الدولة الآشورية بالدور الهام والكبير في نشر حضارتها في جميع مناطق الشرق الأدنى القديم قام تحالف بين الزعيم البابلي، «**نبو بولاصر** من الكلدانيين وبين الميديين، هذا التحالف الذي استطاع أن يقضي على **نينوي** عاصمة الآشوريين عام (612ق.م) وأن يقضي عليهم نهائيا عام (609ق.م)»⁽²⁾. وهكذا لفظت الإمبراطورية الآشورية المحتضرة النفس الأخيرة. هذه القوة التي بقيت مسئولة لألف عام عن نظام العالم، لذلك الوقت. لقد صنعت هذه الإمبراطورية لإنسانها الأصول الأولى للحضارة الإنسانية في كافة مجالاتها المادية والمعنوية.

مما سبق نلاحظ أن حضارة الشرق الأدنى القديم كانت في مراحلها التاريخية، والتي استمرت أكثر من ثلاثة آلاف سنة؛ حضارة واحدة غير متجزئة، فرغم تعدد التسميات التي جاءت نسبة لتغيير الحكم من سيطرة إلى أخرى؛ (فالتسميات: **سومريون** تُسبوا لمدينة سومر، و**الأكاديون** تُسبوا لأكاد، و**البابليون** تُسبوا لمدينة بابل، و**الآشوريون** نسبة إلى مدينتهم وإلههم آشور، وعندما سيطر **الكلدانيون** على الحكم كانت بابل هي عاصمتهم) فيمكن القول: رغم تغيير الحكم من مدينة إلى أخرى وتغيير الأسماء، فإن الشعب هو نفسه والحضارة هي امتداد لهذه الشعب الذي بنى حضارة منذ حوالي (3200ق.م) إلى سنة (539ق.م) وأصداؤها وتأثيرها مستمر على البشرية حتى يومنا هذا.

(1) - Ahmed Sousse , Arabes Et Juifs Dans L'histoire, P39.

(2) - عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، بلاد ما بين النهرين، ومصر القديمة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص126.

هذا الامتزاج والتكامل بين هذه الشعوب قاد الكثيرين من الباحثين إلى غض الطرف عن نصيب الشعب الآشوري في الإبداع الحضاري لمنطقة الشرق الأدنى القديم، فهناك الكثير والكثير من الحضارة الآشورية الذي لا يمكن للمرء تمييزه، بل فصله عن الحضارات الأقدم زمنا، مثل السومرية، الأكادية والبابلية لأنه شكل قسما كبيرا من هذه الحضارة. إلا أنه من ناحية أخرى قد احتوت هذه الحضارة على صفات ميزتها عن الحضارة السومرية البابلية. ولعل أهم ميزة اختص بها المجتمع والحضارة الآشورية هو نظامه الاجتماعي الذي هو في الحقيقة قواعد ومبادئ وأصول وإجراءات لحماية المجتمع ورقيه، وبدونها لا يمكن للحياة الاجتماعية أن تستمر بأمن وسلام. هذا النظام الذي ولد من روح الأسطورة الدينية ذلك لأن الآلهة لما خلقت الإنسان (حسب أسطورة إينوما إيليش) لم تتركه هملا؛ بل قررت أن تهب البشر نظاما إلهيا لإدارة شؤونهم.

2- المنهج المطبق في موضوع الدراسة:

يرتبط تاريخ المنهج بتاريخ التفكير، ذلك أن البحث يعني التفكير، والمنهج يعني الطريقة، وكل تفكير: بدائيا كان أو غير بدائي أصيلا أو غير أصيل، لا بد من اعتماده على طريقة تساعد في الوصول إلى النتيجة.

لذلك فقد كان الإنسان في استخدامه لعقله في التفكير، يلجأ إلى الكثير من الخيال الخصب لتحقيق الطموحات والأحلام في صنع المستقبل الأفضل للحياة البشرية، فكان التفكير الأسطوري، الذي يعده العلماء سابقا عن التفكير الفلسفي والعلمي، لأنه كان يحمل أولى محاولات البدء بالإجابة عن التساؤلات البسيطة أو المركبة والمعقدة التي تدور بصورة مباشرة وغير مباشرة حول كل ما يتعلق بالطبيعة وبجياة الأفراد، والمجتمع والغايات المتعددة والمتنوعة فيه، ومن ضمن هذه التساؤلات كان

لا بد للفكر الإنساني أن يطرح موضوع أصل المجتمع وانشغالات أفراده وطموحاتهم، فجاءت الأساطير متضمنة الإجابات المختلفة عن هذه التساؤلات وغيرها.

ولما كانت الأسطورة بنية مركبة من فكر وتاريخ وفن وحضارة وبالتالي فإن لها القدرة على الامتداد ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وهي تعد من الظواهر الإنسانية والاجتماعية والثقافية المعقدة التي لا يمكن فهمها من خلال الرجوع إلى عامل واحد وإنما يتطلب هذا الفهم:

« المدخل التكاملي أو ما يعرف بالترابط الوظيفي».

ففي أي مجتمع تتداخل النظم الاجتماعية وتترابط، وهذا يعني أن كلا منها يؤثر ويتأثر بالآخر، وكل نظام يتألف مع النظم الأخرى، فحين ندرس النظام الديني مثلا، فإننا نجده يتداخل مع النظم الاقتصادية والسياسية والأسرية... الخ، ولذلك فإن إدراك العلاقات المتبادلة بين النظم الاجتماعية، أمر جوهري لفهم الحياة الاجتماعية.

(وهذا ما نلاحظه في الجانب التطبيقي من الدراسة)

إضافة لذلك فقد استفدنا من:

1- المنهج التاريخي: بغية الحصول على نوع جديد من المعرفة عن طريق الرجوع إلى الماضي-

باعتبار الأساطير ماضٍ حي - فإننا استعنا بالمنهج التاريخي في استعراض موجز تاريخي عن أصل

الأسطورة والنظريات التي وضعت في نشأتها. كذلك علاقة الأسطورة ببعض المصطلحات المشابهة

لها.

2- التحليل البنائي: إن النظم الاجتماعية في وحدتها وترابطها هي التي تؤلف البناء الاجتماعي الشامل المتماسك. وعن طريق الاستعانة بنماذج من الأساطير سنصل في النهاية إلى إبراز دور الأسطورة في بناء النظام الاجتماعي الآشوري.

3- المنهج الوظيفي: ذلك لأن لكل نظام وظيفة يؤديها وتحقق بالضرورة غرضا محمدا ومعينا، فوظيفة الأسرة-مثلا- والتي تنفرد بها عن غيرها من النظم الاجتماعية هي إنجاب الأولاد الشرعيين مع ضمان استمرار نوع من العلاقات التي تقوم على المحبة بين الأشخاص الذين يعتبرون أقارب تبعا لقواعد معينة تسود في ذلك المجتمع.

لذلك سوف نستعرض عمق الدور الذي تقوم به وتؤديه الأسطورة الدينية في بناء النسيج الاجتماعي والديني والاقتصادي والسياسي للمجتمع الآشوري.

ثانيا - دور الأسطورة الدينية في بناء :

1- النظام الديني:

يلمس الباحث في تاريخ المجتمع الآشوري جانبا جوهريا فيه؛ وهو الدور المهم والمميز الذي لعبه الدين في ذلك المجتمع، لدرجة يمكن أن نقول عندها بأن الدين كان هو الدافع والموجه له وما قدمه للبشرية من إنجازات حضارية متنوعة، معمارية، سياسية، اقتصادية، فنية، أدبية وغيرها؛ أي أن الدين هو النظام الاجتماعي.

1-1- المعتقدات:

فلقد كان إنسان هذه الحضارة معتمدا على الآلهة اعتمادا كلياً؛ في عقله وعمله وحياته وزراعته، فعند حصول القحط مثلا: كان الملك الآشوري يكتب بنفسه إلى نوابه من الحكام

ليقيموا مع الكهنة، الصلاة للآلهة من أجل إنزال المطر. كما وصلنا من بلاد الرافدين أغزر النصوص (الأساطير) في الصلوات والتراتيل، التي تكشف عن أثر المعتقد في سلوك المجتمع، ومن ثم بناء الدول، فيتفق الكثير من الباحثين على أن الأسطورة «قدمت للدين جانبه الاعتقادي النظري الذي يدعم ويبرر جانبه الانفعالي الأصلي»⁽¹⁾.

فالأسطورة الدينية معتقد. «والمعتقد يستدعي طقوسا، والطقوس ليست عبثية، أن لها معنى دلاليا، فهي ذات وظيفة اجتماعية، كما أن لها عائدا فرديا»⁽²⁾. فالأسطورة الدينية ترتبط ارتباطا وثيقا بالطقوس التي تعد أقوى أشكال التعبير عن الخبرة الدينية، لدى الفرد والجماعة على حد سواء من خلال تقديم القرابين والصلوات. من هذه الطقوس نجد الصلاة؛ فهي من الطقوس اليومية الأساسية التي تؤدي في المعابد ولكننا لا نعرف بالتفصيل كيفية أدائها لعدم توفر الشروحات الطقسية الخاصة بها، «ولكننا نستطيع الاستنتاج مما وصلنا من نصوص تدرج في زمرة الصلوات، أن المصلي كان يتلو في المعبد نصوصا معدة مسبقا، وان الموسيقى كانت تصاحب الأداء الجمعي للصلاة»⁽³⁾ وسوف نقدم نموذجا عنها وهو صلاة للإله سن (إله القمر) من العصر الأشوري الحديث.

(كانت هذه الصلاة تؤدي في اليوم الثالث عشر من الشهر القمري وتهدف إلى الحصول على البركة وغسل الخطايا).

(1) - فراس السواح ، الدين والأسطورة كنظامين مستقلين ومتقاطعين، مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد

الكتاب العرب بدمشق، العدد264، نيسان1993، ص8.

(2) - نورثروب فراي نظرية الأساطير في النقد الأدبي، دار المعارف، الطبعة الأولى1987، ص11.

(3) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى دار علاء الدين للنشر1997، ص139.

صلاة إلى سن / القمر

أي إلهي سن المبجل، أي إلهي ن نار

أيها الإله الفذ صانع الشعاع المضيء

واهب النور إلى الناس جميعا

ومسدد خطي ذوي الرؤوس السود (الشعب)

نورك وضاء في أعالي السماء

ونار مشعلك متقدة على الدوام

أنت «أنو» السماوات، ومشيتك الخافية لا يعرفها أحد

يفوق الوصف نورك، الذي كنور بكرك شمس.

أمامك ينحني الآلهة الكبار، وأمور البلاد بين يديك.

يلجأ الآلهة لمشورتك فتقدم لهم المشورة ،

وعندما يلتقون في المجلس، فإنهم يتداولون تحت إمرتك.

أي سن، يانور معبد إيكور، وناطق نبوءة الآلهة،

في اليوم الثالث عشر، يوم عيدك يوم سرور قداستك،

أضع بخور الليل أمامك تقدمة وأسكبها أحلى شراب.

إنني أركع، وألبث في انتظار رحمتك.

أنصفني، واغمري بخيرك،

ليرفع إلهي الغضب الذي حل بي زمنا،

وبالحق والعدل فليُنظر إلي بعين الرّضا.

ليجعل الطريق أمامي رحبا وسراطي مستقيما .

وفي هدأة الليل حلني يا إلهي من ذنوبي

دعني إلى آخر الأيام أقف على خدمتك»⁽¹⁾ .

« أما العقائد الأشورية الخاصة بدنيا الموت فكانت مثلها عند البابليين، لا تعطى الفرصة لمن عمل

صالحا أن يتمتع فيها بشيء، فلم يبذل الأشوري أي جهد ليقوم لنفسه مأوى، يمضي فيه حياته

الثانية هائنا سعيدا، بل كان همه أن يرضى الآلهة لمنحه السعادة والرخاء في الحياة الأولى، ولعل

أوضح مثال لذلك ما قاله الملك آشور بني بعل للآلهة :

امنحوني أنا

الذي أحشى معبوداتي العظيمة

حياة تمتد أياما طويلة وسرور القلب»⁽²⁾ .

وإمعانا من السكان في تقديس الآلهة والتقرب إليها قاموا ببناء المعابد الفخمة (الزاقورات أو المعابد

المدرجة) فمن خلالها يتم التقرب إلى الآلهة عن طريق زيارتها والتواجد فيها أثناء إقامة الشعائر

والطقوس المتضمنة تقديم النذور وذبح القرابين.

كما ارتبطت الأسطورة الدينية بالمعتقدات والطقوس التي تنظم موقف الإنسان وسلوكه

اتجاه عالم المقدسات، وتزوده برؤية شمولية للكون وموضع الإنسان فيه ارتبطت بـ :

(1) -فراس السواح، الأسطورة والمعنى دار علاء الدين للنشر 1997، ص ص139-140.

(2) - سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي الطبعة الثانية، 2002، ص 73.

1-2-الأخلاق: باعتبارها القواعد والممارسات التي تنظم موقف الفرد من الآخرين، وسلوك

الأفراد تجاه بعضهم بعضا وتجاه الجماعة التي ينتمون إليها، «إن القواعد الأخلاقية تنشأ من أجل

حل المشاكل الناجمة عن الاحتكاك بين الأفراد والجماعات، وتسوية النزاعات التي تخلقها الحياة

المشتركة، وهي برجعها إلى مبادئ للسلوك متفق عليها، ومقبولة من الجميع، فإنها تطرح نفسها

كبديل عملي وناجح لأسلوب القوة والإكراه في العلاقات الاجتماعية»⁽¹⁾.

وحتى يكون للأخلاق هذه القوة كان من الضروري ربطها بمؤيدات دينية (الأسطورة

الدينية) فالإله الذي يحافظ على نظام الكون من خلال القوانين الطبيعية، هو الذي يحافظ في نفس

الوقت على نظام المجتمعات الإنسانية من خلال القوانين الأخلاقية.

وسوف نعمل في هذا العنصر على تلمس هذه المنظومة، من خلال ما وصلنا من نصوص تظهر لنا

ذلك المستوى الراقى الذي بلغته الحضارة الآشورية في مجال الأخلاق والعلاقات الاجتماعية.

من النصوص ذات الصلة بموضوعنا هنا، ترتيلة مرفوعة للإله شمش إله الشمس و العدالة، الذي

يعاقب الأشرار ويكافئ الأخابار عشر على هذا النص الذي يتألف من مئة وستين (160) سطرا في

مكتبة آشور بانيبال. يتعرض النص إلى الوصايا الأخلاقية التي يرمى الإله شمش تطبيقها.

«1-أيا مبدد الظلام

2-وقاهر الشر... في الأسفل وفي الأعلى.

51-لظهورك يبتهج كل البشر.

1-يا من تحاسب بالحق الصالح وتحاسب الشرير،

(1) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين للنشر، الطبعة الأولى، 1997، ص219.

- 30- ننشر شبكتك الواسعة لتمسك بالرجل،
- 32-الذي يشتهي امرأة صديقه.
- 39-تكسر شكيمة المحرم وتقطع دابره.
- 40-وتذهب جمال من يتلاعب بالحسابات.
- 41-تودي عدالتك بالقاضي الفاسد إلى السجن،
- 42-وتنزل عقابك بالمرتشي الذي يحرف سير العدالة.
- 43-أما المستقيم الذي يرفض الرشوة وينتصر للضعيف،
- 44-يفرح به فؤادك فتشري حياته وتزيد في أيامه.
- 45-القاضي التزيه الذي يصدر الأحكام بالحق،
- 46-تجعل مكانته سامية وتسكنه مساكن الأمراء.
- 47-ما الذي يجنيه المرابي الذي يثمر ماله بربح فاحش؟
- 48-يكذب من أجل ربح آني، ولكنه يخسر ثروة بأكملها.
- 51-ما الذي يجنيه من يغش في الكيل والوزن؟
- 52-من يغير عن عمد في أحجار الميزان وينقص منها؟
- 53-إنه يكذب من أجل ربح آني، ولكنه يخسر ثروة بأكملها»⁽¹⁾.

(1)-فراس السواح، الأسطورة والمعنى دار علاء الدين للنشر، 1997، ص ص 234-235.

هذا وإذا كانت هذه النصوص تقدم صورة عامة للحياة الأخلاقية وتعلي من شأنها وتؤمن بجدواها، فإنه لدينا نص يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد يقدم على مستوى ضيق حكما ووصايا من أب إلى ابنه:

«20-أكبح جماح فمك، راقب كلماتك.

21-وكما يحافظ الرجل على ثروته احفظ شفيتك.

22-لا تتفوه بما لا يفيد، لا تعط نصيحة في غير محلها.

35-لا تصنع بخصمك شرا.

36-ومن يبادرك بسيئة كافئخ بحسنة.

37-واجه عدوك بالعدل ولا تظلم.

40-لا تترك قلبك هبة لإغواء العمل السيء.

12-أعط الطعام لسائله وشراب البلح لطالبه.

13-ولا ترد طالبا لصدقة أو ثوب.

15-ففي ذلك مرضاه للإله شمش وبه يجزي حسنة.

16-كن مصدر عون لإخوتك، صانعا للخير.

32-أي بني إذا اختارك الأمير لخدمته.

33-حافظ على ختمه محافظتك على نفسك.

34-وإذا فتحت خزينته وولجت إليها،

35-سترى أمولا لا يمكنك عدّها،

36- فغض الطرف عنها ولا يراودك طمع بها.

27- لا تغلظ في الكلام، ولا تفتخر على أحد،

29- من يغلظ القول ويفتر على الناس،

30- يعاقبه الإله شمش، ويلاحقه طالبا رأسه»⁽¹⁾.

وحتى تبقى هذه القواعد الأخلاقية فعالة وبنفس قوتها الإلزامية نظرا لتطور البيئة الاجتماعية للمجتمع، واستقرار العلاقات بين الأفراد كان لزاما ربطها بالتشريع.

1-3- التشريع:

فالشرائع ليست إلا جزءا من الأخلاق العامة وقد تم تأييده بالعقوبات التي تفرضها السلطة. «وأول القواعد التشريعية لم تكن سوى قواعد أخلاقية بدت ذات قيمة استثنائية لنظام الجماعة، فجرى دعمها بالقوانين التي تضمن إلزام الأفراد بها.

فالسرقه مثلا، تبقى مسألة من مسائل الأخلاق العامة التي تجد مؤيداتها في الروادع الذاتية، إلى أن تؤيد بعقوبة تفرضها الجماعة، عندها تتحول إلى قضية تشريعية رغم استمرار انتمائها إلى المجال الخلقي. إن أخلاق حضارة بلاد الرافدين والآشورية واحدة منها-على سبيل المثال كانت على الدوام تحض على الأمانة وعدم الاعتداء على ممتلكات الغير، إلى أن جاءت الشرائع فجعلت من السرقة موضوعا تشريعيا»⁽²⁾.

(1)- فراس السواح، الأسطورة والمعنى دار علاء الدين للنشر، الطبعة الأولى، ص ص 242، 243.

(2)- فراس السواح، دين الإنسان، دار علاء الدين للنشر، الطبعة الثانية، ص 80.

فأصبح حرق هذه القاعدة الأخلاقية يعتبر انتهاكا للأعراف الاجتماعية من جهة وتعديا على حدود الآلهة من جهة أخرى إلا أن العقوبة المدعومة لهذه القاعدة الأخلاقية لم تسن من قبل سلطة إلهية بل من قبل سلطة بشرية جاء في شريعة حمورابي التي تعد موادها ثمرة ما جاء في الأساطير والأعراف والتقاليد والسنن الاجتماعية لتنظيم الحياة في المراحل السابقة لحكمة، جاء في المادة 80:

«إذا سرق سيد ثورا أو شاة أو حمارا أو حثزيرا أو قاربا، إذا كان المسروق يعود للإله أو القصر فعليه أن يعطي ثلاثين مثالا، أما إذا كانت السرقة من أملاك مسكين، فعليه أن يدفع عشرة أمثال كاملة، فإذا لم يكن للسارق ما يعرض به فإنه يعدم»⁽¹⁾.

ونقرأ في المادة 23 «إذا لم يضبط السارق فإن صاحب المتاع المسروق، يقدم تفاصيل المسروقات في حضرة الإله، وعندئذ تعوضه المدينة وحاكمها التي وقعت السرقة في ناحيتها عن متاعه المسروق». أما «إذا أدت السرقة إلى خسارة في الأرواح دفعت المدينة وحاكمها إلى ورثة القتل مينا^(*) من الفضة كتعويض» المادة 24.

هذه الشريعة (شريعة حمورابي) طبقها الآشوريون في مجتمعهم مع إدخال بعض التغييرات الفرعية عليه لتناسب دولتهم وعصرهم وأصبح يعرف بالقوانين الآشورية.

سجلت مواد هذه الشريعة على مسلة كبيرة من حجر الديورايت الأسود، ووضعت في مكان عام وسط مدينة بابل أمام الجميع، لرؤية هذه التشريعات الجديدة كي لا يتم التذرع بجهل القوانين.

(1) -فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، دار علاء الدين للنشر، الطبعة الأولى 1997، ص 226.

* -مينا: وحدة وزن قديمة، 1 مينا = 455 غ

لم تغفل هذه الشريعة الأسرة وشؤونها .

2- نظام الأسرة:

فكان القسم الثامن منها والمتعلق بالشؤون العائلية «والمحتوى على المواد من 127 إلى 194، يتضمن تنظيماً كبيراً للأسرة وللروابط العائلية وإنجاب الأطفال. وظهر من خلال دراسة المدونات المكتشفة والقوانين المدونة المتلاحقة، « أن نظام الأسرة في العراق القديم قد وصل إلى حالة من التنظيم الدقيق القائم على فهم متقدم لمفهوم الأسرة، ولدور المرأة والعلاقات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية التي تقوم بين أفرادها، وكانت هذه القوانين تعمل على معالجة وحل الخلافات المحتملة للأسرة لجهة الكثير من الحقوق المالية والاجتماعية القائمة بين أطرافها»⁽¹⁾.

وشكل الأسرة أول ما تكون، تكون في مجمع الآلهة في النظام الأسطوري، كما في أسطورة إينوما إيليش وترجمتها: عندما في الأعلى.

«عندما في الأعلى لم يكن هناك سماء

وفي الأسفل لم يكن هنالك أرض

لم يكن من الآلهة سوى آبسو أبوهم

وممو، وتعامة التي حملت بهم جميعاً

يمزجون أمواهم (مياهم) معاً⁽²⁾.

(1) - عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي، وأساطير الشرق الأدنى القديم، بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص ص134-135.

(2) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين للنشر، الطبعة الأولى، 1997، ص93.

ففي هذا المقطع نلاحظ بداية تشكل الأسرة؛ فالإله آبسو الأب والإلهة تعامة وفي بعض الترجمات تيامات الأم وابنهها ممو«فمن إخصاب مياه المحيط الصالحة المتمثلة بتعامة على يد المياه العذبة المتمثلة بإبسو، يولد من هذا الزواج "ممو" ابنهما الذي -ربما- كان يمثل الضباب والغيوم الصاعدة من العماء المائع. وتشكل هذه العناصر الثلاثة الركيزة لكل حياة»⁽¹⁾.

فكما كان الأب والأم والأبناء (الآلهة) هم الذين يشكلون الركيزة لكل حياة في مجمع الآلهة، فإن الأسرة هي الخلية الأساسية في البناء المجتمعي الإنساني، ولأن الأسرة نسق اجتماعي فهي تقوم على:

2-1- الزواج :

بناء نظام الأسرة قائم على الصورة التي تحملها أسطورة الخلق (إنوما إيليش)، أو أسطورة زواج الإلهة عشتار من الإله تموز خلال كل ربيع من كل عام وهي رمز لبعث الحياة والتوالد عن طريق التزاوج بين الذكران والإناث، وهذه الأساطير تنص على وصف الأسرة اللاهوتية وتؤكد أن الآلهة تتوالد بنظام أسري مؤسس على الزواج بين إله ذكر وإلهة أنثى⁽²⁾، ومن ذلك الأصل الإلهي جاءت طبيعة الإنسان بالمشابهة بصفات خالقه وهي المثال الذي على منواله صنع البشر وعلى أساس الطبيعة الإلهية وضعت القوانين التي تنظم قيام الأسرة لتمد المجتمع البشري بالعنصر الذي يضمن استمرار وجوده على نمط مفضل يميزه عن غيره من المخلوقات الأخرى؛ وعلى ذلك

(1) - إ.إ. جيمس. الأساطير في الشرق الأدنى القديم، ترجمة يوسف شلب الشام، دار التوحيد للنشر الطبعة الأولى 1998، صص 164-165.

(2) - أ. جيمس، الأساطير في الشرق الأدنى القديم، ترجمة يوسف شلب الشام، دار التوحيد للنشر، الطبعة الأولى، 1998، صص 124-125.

تم وضع الأحكام المنظمة للأسرة بدءاً من نشأتها وقيامها لغاية نهايتها بنشوء أسر فرعية منها بواسطة تزواج الأبناء.

لقد ربطت الأسطورة الدينية أو اللاهوتية الفرد والجماعة والقانون المنظم لمؤسسة الأسرة بتوحيد مصدر كل من الإنسان والقانون الحاكم لنظام تسيير العلاقات والممارسات الأخلاقية والتكلفية في تحديد مهام كل عنصر في الأسرة حسب طبيعته ومؤهلاته وقدراته التي صنعته عليها الآلهة، ومن ثم تكون أحكام وقوانين النظام الأسري من وحي إلهي إلى من ينوب عن الآلهة في رعاية حسن تسيير المجتمع، وهذا موجب لتقديس الأسرة لأنها نظام يستمد قداسته من قدسية النظام الإلهي.

تنشأ الأسرة بموجب عقد زواج مسجل يباركه الكهنة إذ نصت المادة 128 من تشريعات حمورابي: «إذا اتخذ رجل زوجة له ولم يدون عقدها فإن هذه المرأة ليست زوجة شرعية»⁽¹⁾. أي أن المجتمع الأشوري تبني الزواج القائم على العقد. أي على الرضا بين الزوج وعائلة الزوجة بشخص والدها أو والدها أو إخوتها بمعنى آخر ولي أمرها القانوني.

ويسبق عقد الزواج عادة مراحل عدة من المفاوضات والخطبة والهدايا والاحتفالات التي تعتبر نوعاً من الإعلان عن الزواج، كما نظم القانون احتمال زواج الرجل بامرأة ثانية فبالرغم من أن العادة كانت الزواج بامرأة واحدة إلا أن القوانين أقرت ضمناً احتمال تعدد الزوجات وإن كانت تعتبر الزوجة الأولى أساسية وأرفع درجة جاء في المادة 148 «يمكن لزوج امرأة مريضة أن يتزوج

(1) -عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ص 135.

بأخرى غير أن عليه الاحتفاظ بزوجه الأولى في بيته والعناية بها ما دامت حية ترزق»⁽¹⁾. وكما نظمت هذه القوانين مسألة إنشاء الأسرة فكذلك نظمت قضية انحلالها أي قضية الطلاق.

2-2-الطلاق:

فأقرت القوانين الطلاق، ولكنها نظمته بشكل لا يسمح فيه للزوج بالطلاق الكيفي وإنما المقيد، وذلك بتوافر الشروط المحددة له مثل منح الزوجة حق طلب الطلاق في حال توافر الشرط الذي يحدده القانون وهو «خيانة الزوج لزوجته. أما في حالة خيانة الزوجة فكانت العقوبة أكبر بكثير، إذ تصل إلى حد الحكم عليها بالموت إن لم يعف عنها زوجها»⁽²⁾، كما منع القانون طلاق المرأة المصابة بمرض خطير إذ أكد نظرتة الإنسانية لمسؤولية الزوج بإعالتها مدة حياتها وهذا ما حددته المادة 148 السابقة.

أما إذا كان للرجل عذر في التطلق فعليه أن يعرض طليقته. جاء في المادة 138: «إذا أراد رجل أن يطلق زوجته التي لم تلد له أولادا، فعليه أن يعرضها نقودا بقدر مهرها، ويسلمها الهدية التي جلبتها من بيت أبيها، ثم يطلقها»⁽³⁾.

«أما إذا لم يكن هناك مهر فعليه أن يعطيها مينا واحدا من الفضة مقابل الطلاق» المادة 139 ويظهر الإنجاب في قانون حمورابي الغاية الأساسية للزواج باعتباره يضمن استمرارية الأسرة وخلود العبادة، لذلك فكما « اهتم بالمرأة اهتم بالأطفال وحقوقهم؛ فلا يحق للأرملة إذا كان لها أولاد

(1) - المرجع نفسه، ص 135.

(2) - Jacques Pirenne, Civilisation Antiques, Edition, Albin Michel, p 94

(3) - المرجع نفسه ص 94.

قصر الزواج قبل إذن القضاة، ويلزم التشريع زوج الأرملة (الثاني) بصيانة حقوق وممتلكات الأولاد القصر، حيث يتم تثبيت ذلك عند القضاة لمراقبة الزوج بتنفيذ التزاماته حتى بلوغ القصر سن الرشد»⁽¹⁾. المادة 173 .

وإذا كان تشريع حمورابي اهتم بوضع المرأة كزوجة في الأسرة فان نظام الأسرة كان يعترف للمرأة باستقلال شخصيتها القانونية الاقتصادية، وخاصة في إدارة أملاكها.

فالمرأة المتزوجة كانت تحتفظ بذمة مالية مستقلة إلى جانب الذمة المالية المشتركة مع الزوج، كما يحق لها القيام بالاستقلال عن زوجها بالتجارة والزراعة أي استثمار أموالها بالياديين المختلفة. وكان للزوجة الحق بإدارة أملاك زوجها عند عجزه أو أسره، إن لم يكن له ابن بلغ سن الرشد.

وهذا النظام مستمد من أسطور زواج عشتار إلهة الأمومة والخصوبة والإله تموز. وفراقهما الناجم عن موت تموز أو أسره في العالم السفلي، فتمسك عشتار بتركة الزواج بعد الفراق، وتستعد لمعاودة الزواج خلال الموسم القادم، كي لا ينقطع توالت الأحياء وحركة تجدد الحياة مهما طرأ عليها من معوقات أو مثبطات أدت لتوقف محدود.

2-3- الميراث:

وكان الاهتمام بقضية الإرث كبيرا في التشريعات العراقية القديمة لما ينتج عنه من قضايا متشابهة تؤدي إلى نزاعات بين أطراف الأسرة وحواشيها «لذلك احتلت هذه القضية حيزا كبيرا في تشريعات حمورابي حيث شغلت عشرين مادة، بينما تركت هذه التشريعات في المقابل للعادات

(1) -Jacques Pirenne ,Civilisation Antiques, Edition, Albin Michel, p 94

والأعراف والتقاليد دورا كبيرا في تنظيم العلاقات التي لا تشكل خروجاً عن المألوف والمتوافق عليها في المجتمع»⁽¹⁾. وما يلاحظ على هذه التشريعات أن الإرث يرجع للذكور، أما حق الإناث فكان غير ثابت.

والأساس من إرجاع الإرث للذكور (الأبناء والأحفاد والإخوة)، هو اعتبارهم امتداداً لشخصية الأب المتوفى أو لالتزامهم بإقامة الشعائر الدينية. والأصل في تقسيم التركة بين أولاد المتوفى من الذكور هو التساوي ولو انتسبوا إلى زوجات شرعيات متعدّدات.

«ولم يكن من حق الأب أن يجرد أولاده خلال حياته من حقهم في الميراث، وإنما كان له ذلك فقط فيما لو ارتكبوا أخطاءاً جسيمة وبشرط خضوع هذه المسألة لرقابة القضاء الذي له وحده الرأي النهائي»⁽²⁾. المادة 168-169.

ومن جهة أخرى فلم يكن الابن بحاجة إلى إعلان قبول التركة بعد وفاة والده، وإنما كان للابن فقط أن يتقدم برغبته عند تزامم الورثة من الإخوة ويهدف تحديد أنصبة كل منهم. وقد سكت قانون حمورابي عن الحقوق الإرثية للبنات، لكن لا يعني ذلك حرمان البنت كلية من الميراث وفي جميع الحالات، إذ تشير الوثائق إلى أن البنت كانت ترث عند عدم وجود أبناء ذكور للمتوفى.

وإن لم توجد أي ذرية للمتوفى انتقلت التركة إلى إخوته ثم لأقربائه المقربين من بعدهم.

(1) - عمر محمد صبحي، عبد الحي الفكر السياسي، وأساطير الشرق القديم بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص136.

(2) - Jacques Pirenne, Civilisation Antiques, Edition, Albin Michel, P94

ومن جهة أخرى « لم يكن للأرملة نصيب في تركة زوجها المتوفى إذ أن حقها يتمثل في البقاء في منزل الزوجية، وتعيش بما تدره أموال المهر وما جلبته من بيت أبيها من فوائد. إذ أن أموال الزوجة لم تكن قابلة إلى الانتقال بل تبقى ملكا خالصا للزوجة»⁽¹⁾.

كذلك نظمت القوانين مسألة إنجاب الأولاد من غير الزوجات أي الإيماء، ونظمت حقوقهم الإرثية فبمجرد اعتراف الآباء بهم وبحقوقهم بموجب عقود مكتوبة، فإنهم يصبحون أحرار كما ينقلون بذلك الحرية إلى أمهاتهم ويحصلون بالتالي على حقهم بالإرث حكما. وهكذا فإن القوانين الخاصة بالميراث اتسمت بالدقة والعدل إلى حد بعيد.

2-4- التبنّي:

وتظهر قوانين حمورابي اهتمامه بقضية التبنّي، لتأمين كامل العلاقات الإنسانية بين الأطراف فكان الهدف الأساسي من التبنّي هو معالجة انعدام الذرية. وقد رتب القانون ضمانا للمتبنّي في حالة تخلت عنه أسرته الجديدة فقد نصت المادة 191، « على منح المتبنّي إذا استبعد من أسرته الجديدة ثلث نصيب الولد الحقيقي من مال الأب، أي كما لو كان قد ظل موجودا في أسرة متبنّيه»⁽²⁾.

إذن كان وضع الأسرة الأشورية يتميز بكثير من النظام والتطور والعدالة والتقدم عن كثير من المجتمعات اللاحقة.

(1) - أنور أبو بندورة، القانون والمجتمع في بلاد ما بين النهرين، حمورابي مشرعا ومدونا، القدس المحتلة، فلسطين فبراير 2006، ص 75.

(2) - المرجع نفسه ص 80.

كما نقرأ في الأساطير عن ظهور مختلف الأشياء وكيفية تأسيس الأعراف الاجتماعية وضوابط الزواج فإننا نقرأ أيضاً عن النباتات والزراعة وابتكار الحرف وأدوات العمل أي وجود نظام اقتصادي.

3- النظام الاقتصادي :

3-1- الزراعة:

فأهم إنجاز حضاري أدى إلى تشكل نظام اقتصادي وتنظيم وانتظام العلاقات الاجتماعية هو اكتشاف الزراعة.

فكان اكتشاف الإنسان للزراعة في منطقة الشرق الأدنى القديم بمثابة الثورة الأولى في تاريخ البشرية لأنها نقلت الإنسان من إنسان سلمي مستهلك لحيرات الطبيعة (مرحلة الصيد)، إلى إنسان إيجابي منتج، وعلى أثر ذلك عرف الإنسان قيمة الأرض، وبدأ ينتمي للأرض التي يعيش عليها، وتزوده بغذائه، فبدأت مرحلة الاستقرار والزراعة في حياة الإنسان، وانتهت حياة التنقل والترحال وجمع الغذاء.

ويعود الفضل في ذلك إلى الآلهة؛ فعندما خلقت الآلهة السماء والأرض، حسب أسطورة الاينوما إيليش وخلقت البشر لخدمتها، والإشراف على أملاكها وإقامة مساكنها والمحافظة عليها، قررت أن تهب البشر نظاماً إلهياً لإدارة شؤونهم.

فالإله لا الإنسان كان أول فلاح، وأول راع، وأول من حلب البقر، وصنع الزبدة والجبن، وأول من طحن وخبز الخبز، وأول من صنع المحراث.

في نص سومري يحكي عن أصل الحبوب وأصل تأهيل الماشية فيرجعها إلى الإله هار الذي

كان أول من ربي الماشية وأخته أشنان التي كانت أول من زرع الحبوب:

« في تلك الأيام،

إنكي قال لإنليل

«أي أبت إنليل، هار واشنان

الذان جرى خلقهما في الدولوج (بيت الخلق)

دعنا نزل بهما من الدولوج»

وهكذا، تنفيذ الكلمة إنكي وإنليل المقدسة،

هبط هار واشنان من الدولوج

من أجل هار أقام إنليل وإنكي فطيرة

وقدما له علفا، عشا ونباتاو....

ومن اجل أشنان بنيا بيتا

وقدما لها المحراث والنير

فأقام لها في حظيرته

راعيا تدفق الخيرات من بين يديه

ووقفت أشنان في الحقل بين محاصيلها

من خيرات السماء أنتج هار وأشنان

وإلى مجمع الآلهة قدما خيراهما

وإلى الأرض وهبا نسمة الحياة⁽¹⁾».

فلقد زودت الآلهة الأرض بالقطعان والحبوب، وقدمت ذلك الابتكار الثمين، لكي يستطيع الناس زراعة البساتين بالخضار وبناء المساكن حولها.

وتعبيرا عن حب الأرض فقد قدسها الإنسان الآشوري وعبدها وصنع لها تماثلا من الطين على شكل امرأة، أطلق عليه العلماء اسم الآلهة الأم (الإلهة عشتار إلهة الخصوبة زوجة الإله آشور) وكان الدافع لذلك أن الإنسان قد اكتشف أن الأرض تشترك مع المرأة في ظاهرة الخصوبة والإنباب والعطاء.

3-2- الآفاق التي فتحتها الزراعة:

فلقد أوجدت الزراعة أولى المرتكزات المادية للاستقرار والضرورية لنشأة المجتمعات البشرية؛ فالاستقرار الذي وفرته الحياة الزراعية، أدى إلى إحساس المجتمعات القديمة بالسلام والطمأنينة، ما أدى إلى ازدياد أعداد أفرادها، وتوسع مواقعها إلى مستوطنات زراعية أدت إلى نشوء دولة المدينة.

كما فتحت الزراعة أفاقا جديدة: ما وفرته الحياة الزراعية من إنتاج ومردود دفع إلى التبادل التجاري، ما بين الآشوريين وبلاد الأناضول الملاصق لبلادهم فتطور عالم التجارة، مما سمح بنقل عناصر حضارية آشورية. هذا التطور أدى إلى ازدهار المواقع وغناها وتوسعها وزيادة فاعليتها الاجتماعية والاقتصادية.

(1) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين والنشر، الطبعة الأولى، 1997، ص ص 109-110.

أدى هذا الاكتشاف -وفق مقولة الحاجة أم الاختراع- إلى اختراع الكتابة؛ بسبب الحاجة إلى إيجاد وسيلة لتدوين واردات المعبد وأملكه؛ إذ هيمنت فئة الكهنة على القرابين المقدمة إلى الآلهة إضافة إلى المرتبات العينية المقررة لها. «وقد بدل ظهور المعابد أو الهياكل كمؤسسات دينية تركز عليها كامل البنية الاقتصادية والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية، من طبيعة النظام ومن طبيعة العلاقات البشرية. فالنظام المشاعي الديمقراطي المكتفي ذاتيا والذي ترتب أموره بعض العادات والتقاليد، تحول إلى نظام متماسك من التوجيه الإداري في جميع جوانب الحياة اليومية... فأصبح المعبد أو الهيكل نقطة الارتكاز المعنوية أو المادية في حياة العراقي القديم، فكانت كل مدينة تقوم بعبادة إله خاص بها، تشيد له هيكلًا في وسطها، ويعتبر هذا الإله مالكا لكل شيء فيها»⁽¹⁾.

كما كان المعبد يقدم جميع ما يلزم للزراعة من حبوب وحيوانات وأدوات الحراثة على أن يتم إرجاعها إلى مخازن المعبد، إذ أنها كانت ملكية مشتركة للمشارك المعبدي.

جاء في المادة 48 من قانون حمورابي:

« إذا كان رجل على دين وضرب إله الأعاصير حقله، أو دمره الفيضان أو أن الغلة لم تنبت في حقله لقلة الماء، ففي هذه السنة لا يعيد الحبوب التي اقترضها إلى دائته ويلغى عقده، ولا يدفع فائضا لتلك السنة»⁽²⁾. (وهذا يتفق مع ما هو معمول به في مختلف الأنظمة الضريبية الحديثة باعتماد احتساب الخسائر إذا قدم المكلف من القرائن ما يؤكد ذلك) .

(1) - عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي، وأساطير الشرق الأدنى القديم، بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص128.

(2) - فوزي رشيد، شرائع العراق القديمة، الرشيد للنشر ص20.

أدى هذا الابتكار إلى تطور تقنيات الصناعات الحرفية كالغزل والحياكة وصنع الفخار، مما سهل الحياة البشرية كثيرا.

إن نشوء الزراعة المروية جعل المجتمعات تنظم وسائل الري، وجرها عبر السواقي أو السدود أو الأقنية، ما اقتضى انبثاق سلطات مجتمعية تنظم هذه الأعمال وما أدى ذلك إلى نشوء السلطة. وهذا ما قام به الملك، حمورابي في أولى سنوات حكمه حيث عمد إلى الإصلاحات الداخلية، وترقية حالة السكان المعاشية وإقامة المشاريع وذلك لكسب رضا الناس ومحبتهم، ثم انصرف إلى إصلاح الجهاز الإداري والقضاء على الرشوات ورفع المظالم وتثبيت الأسعار والاهتمام بحفر القنوات وإقامة السدود وتقوية الجيش، وكل ذلك لأجل تثبيت العدل وتحقيق الخير للجماعة.

وكان كل ذلك بأمر من الآلهة جاء في مقدمة شريعة حمورابي:

«في ذلك الوقت ناديتي الآلهة:

أنا حمورابي، الخادم الذي سرت من أعماله،

والذي كان عوناً لشعبه في الشدائد،

والذي أفاء عليه الثروة والوفرة .

أنا أمتنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء،

وأرعى مصالح الخلق»⁽¹⁾.

لقد أثرت البيئة الزراعية على العقلية العامة للمجتمع الأشوري وانعكس ذلك التأثير بأجلى ما يكون في المعتقدات والأساطير التي كان يجري تداولها بين الناس، وتنظيم الاحتفالات والمواكب

(1)- فوزي رشيد، شرائع العراق القديمة، الرشيد للنشر، ص45.

لتمثيلها، وتحكى للأولاد في البيوت للتعليم، وغرس قيم المجتمع في الأجيال. من أهم هذه الأساطير أسطورة الإله تموز، إله الخصب عند البابليين وآشور عند الآشوريين ولهذا الآلهة دلالة واحدة هي النماء والخصب، والقوة التي تدفع الطبيعة إلى الانبعاث والتجديد من خلال دورة الزمن وتعاقب الفصول، وما ينجم عنها من نمو الزرع وكثرة المحاصيل. فكان الإنسان الآشوري يعتقد أن إحياء الطبيعة لا يتم إلا عن طريق إقامة الطقوس، والشعائر الدينية، فكان عيد الربيع أو عيد رأس السنة. يبدأ هذا العيد في أول يوم من السنة حسب التقويم العراقي القديم «21 نيسان» (21 أفريل) أي يوم ظهور علامة الربيع. في هذا اليوم يتحرر الإله تموز إله الخصب الذكوري من قبره في ظلمات الأرض، ليظهر إلى السطح ويخصب عشتار إلهة الأرض والأنوثة، فتنبت الحياة ويظهر الربيع.

كان الكاهن الأعظم يصلي للإله مردوخ (آشور)، ويقوم الكهنة الآخرون بالطقوس الدينية الأخرى لأيام متتالية ويستمر العيد لعشرة أيام وفي اليوم الأخير تتم تلاوة أسطورة الخليفة (إنوما إيليش) وتقدم الصلوات والقرايين في اليوم الخامس، كما كان الملك يقدم تقريراً عن إنجازاته في السنة المنصرمة، ويطلب من الإله مردوخ المغفرة لذنوبه وآثامه، وفي المساء يذبح ثور أبيض رمز الفحولة ويسقي دمه الأرض، وفي اليوم السادس تنظم مسيرة ضخمة في شارع الموكب حتى يتم حرق دمي ملونة بعد الانتهاء من المراسيم الرسمية، وفي اليوم العاشر يتم الاعتراف بشرعية حكم الملك من قبل الإله مردوخ، وخلال أيام العيد يعم الفرح بين الناس.

ظل العراقيون يحتفلون بعيد الربيع في سومر وبابل وفي نينوى قرابة ثلاثة آلاف عام حتى انتشار المسيحية. هذا الاحتفال برأس السنة البابلية 1 نيسان هو الذي تحول إلى 1 جانفي وذلك

ربطاً بميلاد المسيح _ عليه السلام_ ابتداءً من القرن السادس عشر ميلادي نزولاً عند رغبة الكنيسة الكاثوليكية الأوروبية.

انتقلت تقاليد الاحتفال بهذا العيد إلى الشام كما يظهر تأثيره بشكل واضح في المسيحية بالاحتفال بعيد الفصح (أي تفصح الطبيعة وتفتح في الربيع المسيحي، الذي يعتبره المسيحيون عيد القيامة أي عودة السيد المسيح إلى الحياة بعد صلبه تماماً مثل الاحتفال بقيام تموز وعودته إلى الحياة ليعود معه الربيع والخصب واعتبر العباسيون النوروز عيداً رسمياً وأصبح هذا الاحتفال بهذا العيد أمراً شائعاً ورسمياً في بغداد العباسية.

وتذكر المصادر التاريخية أن من أهم وأجمل الأعياد التي احتفل بها الآشوريين عيد الربيع. وإلى اليوم فإن الأول من أبريل يعدّ عيداً قومياً للآشوريين وعطلة رسمية لهم، ويوماً بعد يوم أخذت هذه الاحتفالات في الإقليم طابعاً جماهيرياً واسعاً وأكثر تنظيماً ويجري الإعداد لها والاحتفال بها كما في عهدنا القديم.

واختار الآشوريون الأول من أبريل ليكون عيد رأس السنة الآشورية لإيمانهم بأسطورتين: أسطورة الخليقة الإينوما إيليش : التي بطلها الإله مردوخ آشور نينوى، إله الخير والحق الذي شطر تيامات إلهة الشر إلى نصفين، فخلق منها السماء والأرض ثم الإنسان لتبدأ الحياة على الأرض.

أما الأسطورة الثانية فكانت انبعث تموز وقيامه من عالم الأموات بعد الحزن والغم الذي انتاب زوجته عشتار من حكم الشياطين الأشرار عليه بالموت فيعود الإله تموز في الربيع ونمو العشب والزرع كرمز لبداية الخليقة على الكون في شهر أبريل.

وهكذا غدا الأول من أفريل عيداً قومياً في العراق القديم.

إذن نصل من كل هذا إلى أن الزراعة أدت إلى سلسلة من الإبداعات الحضارية؛ فالزراعة أدت إلى إحداث اقتصاد حضاري، كما أدت إلى تعميق وتنظيم وانتظام العلاقات الاجتماعية وترسيخ التقاليد المجتمعية بحيث أن عالم الزراعة خلق إيقاعاً مجتمعياً تبعاً لإيقاع الطبيعة والفصول، وهذا ما انعكس في الذهنية المجتمعية وما تبدى من نشوء الأساطير الخصبية وعواملها الإعتقادية.

عرضنا فيما سبق كيف كان ابتكار الزراعة انعطافاً في تاريخ البشرية، على إثره عرف الإنسان قيمة الأرض التي ينتمي إليه ويعيش عليها وتزوده بغذائه، فبدأت مرحلة الاستقرار والأمان. وللحفاظ على ذلك وعلى المنجزات والمكاسب العظيمة التي تلت هذه المرحلة (تكون المدن الكبيرة، بناء الأسوار والحصون، والمعابد، امتلاك الأسلحة...) كان من الضروري وجود حكومات قوية و مستقرة.

4-النظام السياسي:

4-1-السلطة:

كان الملك في العراق القديم على رأس السلطة، حيث عدت سلطته التنفيذية والتشريعية مستمدة بشكل مباشر من الآلهة لحكم البلاد فهو الذي كان يتولى قيادة الجيش وقت الحرب. حيث أن من أولى واجباته المحافظة على حدود الوطن (السيادة الوطنية)، وكذلك توفير الوسائل الكفيلة التي تساعد على الرخاء الاقتصادي عن طريق تنفيذ المشاريع الحيوية العامة. مثل حفر القنوات والأنهار، وبناء المعابد تقرباً إلى الآلهة، فالملك باعتباره وسيطاً بين الآلهة والبشر، كان هو

المسؤول أمام الآلهة، إذا لم يحقق الخير للجماعة ولم يكفل العدالة بين الناس، جاء في مقدمة شريعة حمورابي.

في ذلك الوقت نادتني الآلهة:

أنا حمورابي الخادم الذي سرّرت من أعماله، والذي كان عوناً لشعبه في الشدائد.
والذي أفاء عليه الثروة والوفرة .

أنا أمتنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء،
وأرعى مصالح الخلق.

فالإنسان العراقي القديم كان قد تصور أن الملكية -أي النظام الملكي- قد تكونت أصلاً في السماء، وأوكلتها الآلهة للملوك على الأرض للقيام بأمور السلطة السياسية لتأمين حاجات الآلهة.
تسأل الآلهة في أسطورة الإينوما إيليش الإله مردوخ بعد بناء مدينة بابل:
«توجه الآلهة بالسؤال ل بكرهم مردوخ:

بعد كل ما صنعت يداك،

لمن ستوكل سلطانك؟

وفوق الأرض التي ابتدعتها يداك، لمن ستوكل حكمك؟

فيجلبوا لنا طعام يومنا»⁽¹⁾.

فحسب الأسطورة فالآلهة هي التي تكون المدن، وتوكل إلى بعض الأفراد حكم هذه المدن وذلك في سبيل تأمين حاجات الآلهة الخاصة. كما آمن الإنسان العراقي القديم بأن الملوك الذين تعينهم

(1) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين للنشر، الطبعة الأولى، 1997، ص96.

الآلهة، يقومون بأمور الحكم عن طريق الوحي الإلهي الذي يظهر في الأحلام أو عن طريق التنجيم الذي برع فيه سكان العراق القديم. هؤلاء الملوك تكون مهمتهم الأساسية نشر العدالة فهي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع حتى ينعم بالأمن والخير والاستقرار.

يظهر هذا التعيين الإلهي أو التفويض في مقدمة شريعة حمورابي (حكم بين 1792 ق.م-

1750 ق.م) فبعد إعلان تكليف الإله شمش له (إله الشمس والحكمة والعدالة مصدر التشريع) في

حكم البلاد: يذكر ما يلي:

«آنذاك أسمياني (الإلاهان) أنو وإنليل.

حمورابي، الأمير التقي الذي يخشى الآلهة

لأوطد العدل في البلاد،

لأقضي على الخبيث والشرير،

لكي لا يستعبد القوي الضعيف،

وضعت القانون (دستور) العدالة بلسان البلاد، لتحقيق الخير للناس.

ويؤكد حمورابي مجدداً في خاتمة شريعته على الإيمان والعمل بالعدل بقوله:

«لم أكن مهملاً أو مزعجاً لذوي الرؤوس السود (الشعب)

فأصبحت الراعي المحسن الذي صولجانه العدالة

لكي لا يظلم القوي الضعيف،

ولكي ترعى العدالة اليتيم والأرامل .

لا قضي البلاد بالعدالة ولأوطدّ النظام في البلاد ولكي أمنح العدالة للمظلوم.

فيإدارة الإله شمش، قاضي السماء، والأرض العظيم عسى أن تسود عدالتي البلاد»⁽¹⁾.

يظهر تمسك ملوك بلاد ما بين النهرين بتوطيد النظام العام ونشر العدالة باعتبارها أوامر إلهية حتى لا تسود الفوضى. ولا شك أن مفاهيم العدالة المرتكزة على مضامين محددة وواضحة للحق والواجب والعقاب في تشريعات مكتوبة، تؤكد مدى استقرار وتطور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

4-2- فرض النظام:

كما تعبر القوانين المكتوبة عن مرحلة متقدمة من التطور الحضاري الذي كان أساسه، وجود سلطة سياسية تعمل على تحقيق الأمن والاستقرار وفق قواعد وأسس محدودة وملزمة، وليس على أوامر وقرارات تتغير وتبديل مع أهواء ومصالح الحكام والموظفين والمتسلطين، وهذا ما عبرت عنه أسطورة الإينوما إيلش، فلائهاء الفوضى وفرض النظام في عالم الآلهة بالقوة اجتمع الآلهة الكبار في مجلسها وطلبت من مردوك (أشور عند الآشوريين) وضع حد لحروب وفوضى تيعامة (أو تيامات) المهدة للآلهة ولجتمعاها. ولكن مردوك اشترط للقيام بهذه المهمة بأن يجتمع مجلس الآلهة وليقروا مقابل قيامه بهذه المهمة أن تكون له الامتيازات والسلطات الاستثنائية «فيقول في الملحمة البابلية:

يا رب الآلهة وسيد مصائرهم:

إذا كان لي أن أنتقم لكم حقا،

(1) - عمر محمد صبحي عبد الحفي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص169.

فأقهر تعامة، وأحفظ حياتكم،

فإني أطلب اجتماعا يعلن فيه اقتداري (في ترجمة أخرى: أعلنوا عن سلطتي العليا)

وعندما تلتقون جذلين في قاعة الاجتماع

اجعلوا لكلمي قوة تقرير المصائر بدلا عنك

وليبق ما أخلق قائما لا يزول

وما أنطق به من أوامر، ماضيا لا يجول»⁽¹⁾

وبعدما وافقت الآلهة على شرط مردوخ أو مردوك ونجح في مهمته بالقضاء على تيامة قام بتنظيم

الكون على الشكل المعروف به ، ثم اجتمعت الآلهة مجددا واحتفلت بتتويجه سيدا للكون.

يتبين من تفويض الآلهة الكبار للإله مردوخ، أن سلطة هذا الأخير أصبحت تمثل السلطة القائمة

على الهيمنة والإلزام والإكراه المعنوي والمادي. وكأن مجلس الآلهة قد تنازل عن حقوقه لـ مردوخ

مقابل تأمين النظام، وهو ما حصل في المجتمع الإنساني حينما أصبح الملوك ضرورة لتأمين النظام

بعد عجز المجالس القروية عن تأمين الأمن والاستقرار وتنظيم جميع الأمور المستجدة في المجتمع

المدني. وكان هذه الأسطورة تقوم بتبرير وجود السلطة الكاملة والمطلقة للملوك بهدف تأمين الأمن

والاستقرار وتحقيق الغايات المختلفة عن طريق استعمال القوة أي سلطة الإكراه المادي.

إن ملحمة التكوين البابلي التي بينت كيفية القضاء على الفوضى في عالم الآلهة كانت تظهر

تطور المفاهيم الدينية المصاحب للتطورات السياسية في المجتمع البابلي، فقيام السلطة البابلية القوية

(1) - عمر محمد صبحي عبد الحفي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة، المؤسسة

مع الإمبراطورية التي وحدت كل المدن والأقاليم في بلاد ما بين النهرين على أنقاض مدن لكل منها آلهتها الخاصة كان يستوجب إيجاد معتقد ديني سياسي يبرز هذه الوحدة السياسية للإمبراطورية الجديدة «ولذلك كان من المنطقي عند العراقي القديم أن يعزو مردوخ إله مدينة بابل على آلهة المدن الأخرى، وبذلك كانت الملحمة تعبر عن المتغيرات السياسية في بلاد ما بين النهرين انطلاقاً من مفاهيم أسطورية عن الآلهة والكون»⁽¹⁾.

وهذا ما حدث في المرحلة الآشورية عندما انتقلت الزعامة السياسية والحضارية إلى آشور في الألف الأول قبل الميلاد، إذ أصبح الإله آشور هو الأول في مجمع الآلهة الآشورية، ويشار إليه كصاحب أعلى المراكز بين المعبودات وتاريخه في تصاعد مستمر، ذكر مع مدينته آشور ثم زاد نمواً مع بلاده، واغتصب اختصاصات غيره من المعبودات، وألغى زملاءه ومنافسيه فكان أباً للآلهة بدلاً من أنو، وإلهاً للأرض بدلاً من إنليل، وبدلاً من مردوخ البابلي، بل عد خالقاً للآلهة جميعاً، سيدهم وملاكاً عليهم، وهو الذي يمنح التاج والصولجان للملك، ويمتدح الناس قوته ويترنمون بعظمته وجلاله، وهو يرأس مجمع الآلهة الآشورية ليحدد مصائر البشر. وبذلك يكون الفكر الأسطوري متغيراً متحركاً ليلتئم دائماً بين الأساطير القديمة والأوضاع السياسية الجديدة، فتتغير بالتالي كتابة الأساطير القديمة لتعبر عن المستجدات السياسية، (فكرة حكم العالم الآشورية)، فلقد أمد الإله آشور أتباعه بإرادة حديدية متطرفة مندفعة للنضال في سبيل حكمه العالم. وهو تبرير لفكرة

(1) -عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص156.

تناسب المرحلة الجديدة التي تمر بها الدولة الآشورية إذ اتسعت حدودها، ووصل سلاطين وملوك آشور إلى كل منطقة الهلال الخصيب (العراق، وسوريا) وفلسطين حتى منطقة الدلتا بمصر السفلى.

4-3- تشكيل الجيش:

كما زودهم الإله آشور بالاعتقاد أن القتال في سبيل الإله آشور إنما هو بنفس الوقت، النضال من أجل الحق والنظام في العالم فأصبح الملك في الدولة الآشورية الحديثة الرئيس الأعلى للدولة، والقائد للقوات وفارس الفرسان. فكانت مهمته سياسية ودينية وعسكرية. فالملك يقود جيش آشور للقتال من أجل نشر الحق الإلهي، «ولقد وصلتنا أعداد كبيرة من قطع الملحمة آشورية من العصر الوسيط تطرق موضوعا تاريخيا - سياسيا إذ تصور لنا الملك الآشوري كبطل وهو في مقدمة رجاله... ويكفي سرد بعض من هذه الملحمة لتحديد لنا المعالم الفكرية لهذا العالم الآشوري: لقد تبع جنود آشور الدعوة ليقاتلوا وهم يرون الموت في الأعين.

إنهم يتطلعون على عشتار راجين رحمتها، ويمجدون السيدة في معمة القتال.

إنهم للميؤون بالحداد والعداء كجوهر إله العاصفة المتقلب.

ويندفعون بشراسة في حومة الوغى عراة الجزع إنهم ليكشفون الصدور.

يمزقون الثياب، ويجدلون شعرهم ويلوحون بالحرايب

لقد رقص الرجال الأشداء الأقوياء في لعبة السلاح الفتاك»⁽¹⁾.

لقد كونت الإمبراطورية الآشورية الجيوش حتى أصبحت عماد السلطة السياسية «ليس فقط لحماية الدولة من الأخطار الخارجية، بل أيضا للقيام بأدوار داخلية مساعدة للموظفين على بسط السلطة

(1) - أنطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب: توفيق سليمان، علي أبو عساف، قاسم طوير، ص 263.

على الأفراد في جميع الأقاليم وكان من الطبيعي مع كبر حجم ودور الجيوش، أن تنتظم الفرق العسكرية باختصاصات مختلفة وبتسلسل قيادي منظم⁽¹⁾. وبذلك يكون الآشوريون قد شكلوا أول جيش منظم في التاريخ .

وهكذا يصبح التطور فارضا للسلطة التي تتمتع بالقدرة على فرض ما تريد بما لها من قوة وليس بما يكمن فيها من رغبة مجردة في الحفاظ على النظام. وهذا يعني حسب أسطورة الإينوما إيليش أن النمو والتطور يغير من طبيعة السلطة . فظهور الملوك في بلاد ما بين النهرين والملوك قواد الجيوش وتمتعهم بالسلطة الإكراهية لتأمين النظام «أصبح ضرورة تملئها التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى جانب مخاطر الغزو الخارجي، وهذا ما جعل الفكر في بلاد ما بين النهرين، يتسع وينمو ليستوعب الظروف المتغيرة، فكانت الحكايات الأسطورية عن عالم الآلهة، هي التعبير الفكري عن حقيقة الواقع السياسي، أي أن الأسطورة عملت على إبراز التفكير والفكر السياسي المعالج للأوضاع القائمة، من خلال حكايات الآلهة وما تقوم به لإصلاح ما تقتضيه الظروف المستجدة»⁽²⁾.

في الأخير يتبين لنا من خلال دراستنا في هذا الفصل أن التطور الكبير الذي بلغته بلاد ما بين النهرين_ والأشورية واحدة منها_ في جميع الجوانب الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم يكن إلا من ابتكار الآلهة ، أما الإنسان فلم يبتكر شيئا جديدا، بل ولم يسع لذلك، إلا أنه كرر

(1) - عمر محمد صبحي عبد الحي: الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم ما بين النهرين و مصر القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ص ص 131-132.

(2) - عمر محمد صبحي عبد الحي: الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم ما بين النهرين و مصر القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ص 158.

النماذج الإلهية التي انطبعت في الأساطير وحسب. فالأسطورة هي التي علمت الناس أساليب الزراعة وطرقها، ومختلف المهن، وأقامت لهم قواعد الحياة الأسرية والاجتماعية وحددت أصول الملكية ومعاييرها، وأرشدتهم إلى السلوك الصحيح في مختلف الحالات. والمؤسسات والقوانين والتشريعات، هذه جميعا جاءت من السماء وابتدتها الآلهة من أجل الإنسان. فالأسطورة قدمت نواميس الحضارة للإنسان.

جاء في أسطورة إنانا وإنكي :

عندما تتسلم إنانا جميع النواميس، تقف أمام إنكي وتقر باستلامها النواميس

«لقد أعطاني الأب إنكي نواميس الحضارة.

أعطاني ناموس الكهنوت الأعلى.

أعطاني ناموس التاج النبيل الدائم.

أعطاني عرش الملوكية

أعطاني الصولجان النبيل

أعطاني العصا

أعطاني قضيبا وحبل قياس المسافة

أعطاني الخنجر والسيف

أعطاني فن ممارسة الحب

أعطاني أدوات الموسيقى الصادحة

أعطاني فن الغناء

أعطاني فن اللياقة والكياسة

أعطاني بيوت السكن الآمنة

أعطاني حرفة حفر الخشب

أعطاني حرفة صناعة النحاس

أعطاني...»⁽¹⁾.

(1) - فراس السواح، الأسطورة والمعنى دار علاء الدين للنشر الطبعة الأولى، 1997، ص ص 119-120.

الختمة

سعت هذه الدراسة إلى بيان ما للأساطير من أدوار ووظائف في بناء النظام الاجتماعي.

انطلاقاً من أن الأسطورة ليست وهماً ولا تهيئات من صنع الخيال، ولا خرافة؛ لأن خلط الأسطورة بغيرها من المصطلحات الأخرى، يؤدي إلى انحراف عن مقاصد البحث، وهذا خلط يجب التخلص منه كخطوة أولى لدراسة جادة للأساطير. فالأسطورة عند أصحابها الأوائل هي «الوجود الأكثر واقعية وحيوية وملموسية ومحسوسية». وهي عندما ترتبط بالدين فإن ذلك يمنحها سلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم، من خلال النظام الديني الذي تنتمي إليه، عندما ترتبط بالقضايا الأساسية كمسألة خلق العالم (أسطورة اينوما ايليش)، وفقدان الخلود ومصير الإنسان (أسطورة جلجامش)، وتوالي الفصول والصراع بين الخير والشر (أسطورة تموز)، فإن الأسطورة هنا تتشكل لتجعل هذه الأمور على علاقة مباشرة مع الظروف والبنى الجسدية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية والدينية. فيكون الهدف الرئيسي لهذه الأساطير هو استقرار النظام سواء في الطبيعة أو المجتمع، وتأكيد الإيمان وضمان فعالية الدين والمحافظة على السلوك والأوضاع الطبيعية.

كما يتضح من هذه الدراسة الدور الفعال الذي تقوم به الأسطورة في حياة الشعوب، إلى درجة أنها تصبح فعلاً هي النواة النشطة التي يتشكل حولها النسيج الاجتماعي والثقافي والسياسي والديني. فالأسطورة حين تتصل بالسلمات الشخصية لأي شعب من الشعوب فإنها تظل نشطة طالما بقي هذا الشعب على قيد الحياة، وتؤدي دوراً مهماً في التوازن في شخصية أفراد المجتمع الذي تزدهر فيه الأسطورة. إذ تقوم الأسطورة في الجوهر على أساس من رغبة حماسية تدفع الأفراد إلى الشعور بوجود هوية بينهم وبين المجتمع والطبيعة، ويتحقق إشباع هذه الرغبة بواسطة الطقوس الدينية، فهناك تذوب الفوارق بين الأفراد ويتحولون إلى كل بلا تمايز.

وتلعب الأسطورة دورا هاما على المستوى الاجتماعي فهي نظرا لقدسيتها ومؤيدياتها الذاتية، كانت مركبة للتواصل بين أفراد الجماعة وبين الأجيال المتعاقبة خصوصا قبل شيوع الكتابة والاعتماد عليها في الاتصال فكان نقل الأسطورة من الكبار إلى الصغار ومن جيل إلى جيل هو الوسيلة الفعالة لحفظ الثقافة واستمرارها كما كانت الوسيلة الأجدى لترسيخ القيم الاجتماعية والأخلاقية، وذاكرة تحفظ جوانب مهمة من تاريخ الجماعة.

وفوق كل ذلك فإن الأسطورة تلعب دورا مهما في توضيح المعتقد الديني، فهي دوما جزءا من الدين، وتتميز الأسطورة الدينية التي تربط ارتباطا وثيقا بالطقوس، وتدخل في صلب العبادات التي يمارسها الفرد والجماعة، ولهذا الاعتبار فقد ساعدت في الاستقرار الذي شهده الإنسان وما صاحبه من تطور كبير في النظام السياسي والزراعي، ونظام الأسرة.

إن هذا التطور تطلب وجود قوانين تهتم بسن تشريعات تحدد الأطر لإقامة مجتمع متحضر في نظامه الروحي والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

وأشهر هذه القوانين، قوانين حمورابي التي أوحى له بها الإله شمش (إله الشمس والحكمة والتشريع)، وتتضمن السياسة الداخلية والأسس التشريعية لإقامة نظام الحياة الاجتماعية ضمن الإمبراطورية، كما تتناول أمور الزراعة والتجارة والحياة الاجتماعية والأسرية والعلاقات الفردية، والجزاءات لمختلف أنواع الجرائم والجنح، وكانت تلك القوانين الأساس الذي بنت عليه البشرية فيما بعد تشريعاتها.

فالآلهة في الأسطورة الدينية ارتقت بقواها الخاصة ثم عملت على تقنين تجربتها لتكون مثلا للإنسان. والآلهة عندما خلقت الإنسان فرضت عليه السعي في مناكب الأرض ليعمل ويحصل قوته

كما أرست له أسس الطقوس والعبادات وعلمته خشية الآلهة. ثم اتبعت ذلك بعدد من النشاطات التنظيمية التي ترسخ أسس التحضر الإنساني. ومن هذا الآلهة نجد الإله إنكي الذي كان أكثر الآلهة فعالية في زمن التأصيل والتأسيس. فإننا نجد يطفو أرجاء العالم، ويقرر لكل قطر مصيره مظهرًا إلى الوجود كل ما هو نافع ومفيد لحياة الإنسان فيقرر بناء المدن، ثم يتجه نحو نهري دجلة والفرات فيملاًهما ماءً نقيًا ويخلق فيهما السمك، وعلى الشطآن ينشر القصب، ويوكل به الإله إنليلولو ثم يلتفت إلى البحر فينظم شؤونه ويوكل به الإله سيرارا، ثم يؤجج الرياح في مساراتها ويوكل بها الإله إشكون صاحب القفل الفضي الذي يضبط بواسطته هطول الأمطار. ثم إلى شؤون الزراعة وما يتصل بها من أدوات، فيخلق المحراث والنير، ويوكل الإله إنكميدو بالقنوات والسواقي.

وفي المدن يهتم بالعمران فيقيم للآجر إلهاً خاصاً ويحفر الأساسات ويرفع الجدران ويعين الإله شداما للإشراف على أعمال البناء، ثم يملأ الحظائر باللبن والزبدة ويعين عليها الإله الراعي دوموزي.

فهذا التاريخ الحضاري لا يقوده الإنسان، بل الفعالية الإلهية، أما الإنسان فليس إلا عنصراً منفعلاً في هذا العالم، لا يمارس إلا الدور الذي ترسمه له الآلهة.
مما تقدم نقول:

لقد كانت الأسطورة الدينية تمثل الرقيب الذاتي والحارس التلقائي في النفس لدى الفرد والجماعة في مراعاة الانضباط الخلقية والقانونية للارتقاء في التقرب للإله، وفي ذلك علواً للهمة

وكرامة لذات الإنسان وبه يُضمن استمرار النظام الاجتماعي المفضل لديه في توفير حاجاته والذي من خلاله يستطيع المجتمع أن يحافظ على ثقافته وحضارته وكيانه الخاص، وكل ما يميزه.

وكما يمكن القول أن الأسطورة الدينية تعد ظاهرة اجتماعية لعدم خلو أي نظام اجتماعي لمجتمع ما منها. فهي تابعة للدين. بل تمثل الإعلام المقدس في منظومة الدين الذي يحمل مصداقيته في ذاته دون الحاجة لبرهان عن ذلك. أما علتها فتبرز في الحاجة الملحة لها فهي ضرورية لقيام الجماعة بصورة عامة. وكذلك تكون الأسطورة الدينية وسيلة في بعض مَحَال وجودها واستعمالها في تحقيق غايات كتقديس الحاكم لتكريس الطاعة وضبط النظام.

وختاماً نقول أنه من الخطأ الفادح أن ننظر إلى أساطير الأولين على أنها خرافات لا تمت إلى الواقع بصلة لأننا بذلك سنفقد حلقات رئيسية تبين بجلاء حقيقة مبتدانا ومنتھانا و سر وجودنا.

و لتلافي ذلك نورد التوصيات التالية:

التوصية

ثالث

1- إن الأوائل لم يكتبوا-أصلا-أساطيرهم لزماننا نحن بل كانت الأساطير في الأساس لغة عبادة، ضمنوها الحقائق الدينية التي تعلموها من جهات عليا (آلهة)، هدفوا من خلالها النفوذ إلى داخل الوجدان الإنساني، وخلق التوازن بين النفس والعقل والروح، والى تقوية العقائد في النفوس لتستقيم وتتره، وتنتج ضمن النظام الإداري والاجتماعي والاقتصادي الذي أرادوا تشييده.

ولغة العبادة -كما نعرف- في جميع الديانات قائمة أساسا على الرموز والخيالات لغرض تحريك العواطف.

2- كما استخدم الإنسان الأول في صياغته للأسطورة، لغة بسيطة سهلة التداول، وأسبغ عليها، تعابير إيحائية لتكون معبرة بصدق عن واقع ذلك الإنسان وفكره. ويمكن من خلال دراسة الأساطير اكتشاف المستوى المعرفي والعقائدي والعلمي والأخلاقي والثقافي للشعوب والتعرف على أطوار التاريخ الإنساني لأنها تمثل انعكاسا لمعارف الإنسان الأول وعلومه وحكمته، وهي تعبير عن منطقته وأسلوبه في المعرفة والتفكير، وسبيله لتفسير الأشياء وتعليل أسباب حدوثها.

ولا يخفى على أحد اليوم، بأن الأسطورة جزء لا يتجزأ من التراث التاريخي العام، الذي يرجع إليه أحيانا وتحول دون زواله من الأذهان، بل وكثيرا ما يفيدنا في فهم حضارات الشعوب وكشف جوانب التاريخ المبهمة.

3- إن من الظلم على سبيل المثال-أن يدرس موضوع الأساطير ونشأتها بأخذ عينة أساطير الرومان والإغريق مثلا والبناء عليها، ثم نقل تلك الآراء حكما عاما على الأساطير أيا كانت، لأن تلك الأساطير غابت معالمها وصارت تجول بين الخرافة والرمز منها بين "الأسطورة والمعنى" وذلك باعتراف أصحابهما أنفسهم بأن أساطيرهم اعترافا كثيرا من التحوير والتبديل.

والأساطير في المنطقة العربية، نالت من أصناف التجني ما أدى إلى نتائج حلت من الأمانة والوفاء لتلك الشعوب التي خلفت أفكارا وعلماء، فلتلك الأساطير خصوصية ينبغي أن تبحث وتدرس بمعزل عن أساطير الشعوب الأخرى، لكي لا تختلط علينا الأمور فنستطيع التعرف على أصل نشأتها، ونتمكن من الوصول إلى مراميها لأنها تنطوي على حقائق دينية وعلوم سماوية لا على إكثار خيالي خرافي.

4- ونحن إذ ندعو لمراجعة تراث أباؤنا الأولين الذين سكنوا المنطقة العربية، منطقة انطلاقة الإنسانية العاقلة (آدم عليه السلام) ومهد الحضارات، فإن ذلك يقتضي النظر والتدقيق في تراثهم بكل ما يتضمنه من أبنية ومدافن وزقورات ومدونات رقمية... فكلها تشهد بأن الإنسان القديم في جميع مناطق حضوره في الحضارات القديمة السومرية والبابلية والآشورية والمصرية، والأوغارتية قد تناول موضوعات مشتركة (الخلق، الطوفان، الموت، الملكة...) تشكل المفاصل الرئيسية في خطه الاعتقادي والعلمي عن الكون والإنسان، لذا فإن التعرف على أساطير الأولين من أول المباحث وأهمها لتبين واقع الإنسان الأول، وبدايات الأشياء، ولتكشف لنا كيف كان الإنسان في بدايته الأولى؟ وأي رسالة حملها؟ وماذا كان يعتقد؟ وكيف كان يفكر؟ وما انتاجاته؟ وما مستوى معارفه وعلومه؟

5- لذلك كله نرى أنه من واجبنا ومن الوفاء لهذا التراث أن نتحمل_ نحن أصحابه- دورنا المطلوب تجاهه فليس من المعقول أبدا أن يكرر الباحثون العرب ما يردده من سبقهم من الباحثين الغربيين، بدءا من الانطلاق من نطاق الأفكار الموسوم بها الفكر القديم كونه يعبد آلهة متعددة، ويزخر بالخرافات والكائنات الأسطورية الخيالية، مروراً بالقبول بالترجمات ومن ثم التسليم

بالتفسيرات. يعترف السيد صمويل كرىمر الباحث لسنوات طويلة في الكتابات السومرية بالقصور في فهم ترجمة الكتابات القديمة ويقول: «هذا وآراني في غنى عن القول أن عددا ليس بالقليل من الكلمات والعبارات السومرية لا يزال مشكوكا فيه، وغير محقق. وإني على ثقة تامة بأن أحد الأساتذة الباحثين سيوفق في المستقل إلى ترجمة أدق وأضبط».

فلماذا لا يكون هذا الأستاذ الباحث عربيا؟.

وحتى يوفق هذا الباحث العربي يجب عليه التعرف على اللغة العربية وربطها ضمن منظومة واحدة بكل لهجاتها السريانية والفينيقية والعربية العرباء، وهي اللهجات التي كتبت بها الأساطير، بالإضافة إلى ذلك عليه أن يدرس الآثار القديمة، من قبور ومبان، ومعابد ونقوش ورسوم، وأساطير، وكنوز وغيرها، بروح الباحث النزيه المرید للحقيقة القادر على التدبر واكتشاف ما بين السطور.

-إن الحاجة إلى ترجمة الأساطير ترجمة مباشرة إلى العربية باتت أكثر من ضرورة ملحة، إذ أن مثل هذه الترجمة تجعلنا غير متكئين على المفهوم الغربي لنص هذا الإرث القومي، وغير معتمدين على تفاسير تبني على أسس شتى في بناء فهمنا، فنحن نملك أمرين يمثلان الأسس لهذه الترجمة، وهما اللغة العربية والامتداد الحضاري:

فاللغة العربية أقرب لغات الأرض الحية إلى اللغة الأبجدية التي كتبت بها الأساطير، وجذورها تمتد في عمق التاريخ لتتشابك وتتشارك مع أصول اللغة الأكديّة وقواعدها ومفرداتها.

أما الامتداد الحضاري فنجدّه في أسلوب وتعابير ومفردات استعملت في صياغة الأساطير قبل حوالي أربعة آلاف عام، ولم نزل نجد لها صدى اليوم في أدبياتنا ومعاجمنا وفي كلامنا، مدونا كان أو محكيا.

ولذلك يجب الاهتمام بدراسة الأساطير عموما والدينية خصوصا بإقامة الملتقيات والندوات

العلمية، وحث الباحثين الخوض في هذا الجانب المعرفي، وفتح دراسات عليا متخصصة فيها.

دور الأسطورة الدينية في بناء النظام الاجتماعي

-دراسة نموذج من النظام الاجتماعي الآشوري -

في هذه الدراسة فتحنا خزان الثقافة الإنسانية الذي لا ينضب في محاولة منا لدراسة مكون مهم في مكوناتنا وهو الأساطير القديمة ، فقد يصعب على إنسان العصر الحديث الذي يعيش في عالم فكري منظم تحكمه مناهج البحث النظري والعلمي ويجابه طبيعة نزعته عنها قدسيته وأسرارها وتحولت إلى حقل للاختبار والتجريب ، إن يتصور موقف الإنسان القديم في المراحل الأولى لمجتمعه مع الطبيعة ونواميسها مجردا لكل التقنيات المتاحة بين أيدينا اليوم.

أما الإنسان القديم فلم يكن بالنسبة له بهذا القدر الكبير من الغموض والحيرة إذ آمن أن الآلهة التي خلقتها هي التي رسمت له الطريق التي يجب أن يتبعها وهي التي علمته وزودته بأسباب البقاء كلها ، أي خلقت له نظاما كونيا محددًا وبالتالي لم يبق أمامه وأمام الناس سوى أن يحافظوا عليه، ولتحقيق ذلك كان ينبغي عليهم أن يلتزموا بما جاء في الأساطير

هذه الأساطير التي كان لها دور في إيصال الإنسان الأول إلى قمته النظام فعاش مستويات رفيعة وراقية مع معنوياته ونظامه الأخلاقي والاجتماعي والأسري ، هذا الرقى اكتسبه بفضل ارتباطه بقوة عليا هي الآلهة ، فمزج العلم والاقتصاد والسياسة الأخلاق والدين وبني حضارة وأقام نظاما وسن تشريعات تحترم الإنسان وتقديس القيم والمبادئ فلقد بني الآشوريون وقبلهم السومريون والبابليون حضارة لا تقرر رقا في مجالات السياسة والاجتماع وعلوم الفلك والهندسة والطب عما عليه حضارات اليوم ولكنهم لم يتخلوا عن ارتباطهم بالسماء ما فعل إنسان اليوم ، فعاشوا توازنا بين عقولهم وأرواحهم وحافظوا على إنسانيتهم في الوقت الذي تراجع إنسان اليوم إلى حد كبير في معنوياته وقيمه وأخلاقه عندما أعلن أن الحقائق التي يدركها العقل في الحقائق الوحيدة الجدة بالمعرفة.

Summary :

(The Role of the mythology in the development of the social system)

In this study, we focus on an inexhaustible human culture in an attempt to explore an important part of our culture: mythology. It is difficult for man of today, who lives in a world ordered intellectually, governed by the research methods, theoretical and scientific opposite nature disclose these secrets and sacred, and turned into a field experiment, to imagine the position of the man of old in his first step to nature and these laws unveil all available technology in our hands today

The old man have not so much uncertainty and confusion since it believe that the gods who created him, trace the path to be followed by him, these gods had given and had learned all the reasons to him and his contemporary, to stay alive, i.e. they created a specific universe, then it only remains to keep it, in order to achieve this they should have to comply with laws of myths

These myths, which have had a role in the evolution of man to the top of the system, then he lived in high levels of motivation and its moral, social and family, this development gained by a bond with strength supreme gods, he blend science, economics, politics and morality to religion he create a civilization, and he built a system and promulgates a legislation that respects and preserves the values and human principles.

Assyrians built, and before them the Sumerians and Babylonians a civilization no less developed in the fields of politics and the sciences, engineering and medicine acknowledges by today's civilization, but he not waived their routes to heaven as the man of today, when they lived a balance between their minds and their lives and keep their humanity, in the time or man, who some declines in its moral values when he said that the facts known by reason, is the only truth worth knowing.

Sommaire :

(Le rôle de la mythologie dans l'élaboration du système social)

Dans cette étude, nous avons ouvert une source, Inépuisable de la culture humaine pour une tentative d'étudier un élément important qui forme notre culture : la mythologie. il est difficile pour l'homme moderne, qui vit dans un monde intellectuellement ordonné et régi par des méthodes de recherche , théoriques et scientifiques en face a une nature dévoilée de ses sacrés et ses secrets et transformée en un champ d'expérimentation, d'imaginer la position de l'homme ancien dans ses premières étapes vis- à-vis la nature et ses lois découvert de toutes techniques disponibles aujourd'hui.

L'homme ancien n'a pas tant d'incertitude et de confusion puisque il croit que les dieux qui l'on créé tracent lui le chemin qu'il doit suivre, ces dieux l'ont donné et l'ont appris toutes les raisons de rester en vie, c.à.d. lui créé un univers spécifique, alors il ne reste devant lui et devant ces contemporains, que de le tenir, et pour parvenir à cela ils devraient avoir à respecter les mythes

Ces mythes, qui ont eu un rôle dans l'évolution de l'homme vers le sommet du système, ainsi il a vécu dans des niveaux élevés de motivation et de son système moral, social et familial, cette évolution acquise par une liaison avec la force suprême (des dieux), il a mélangé la science, l'économie, la politique et la morale à la religion et il a créé une civilisation et il a construit un système et a promulguer une législation qui respecte et préserve les valeurs et principes humaines.

Les Assyriens ont construit, et avant eux les Sumériens, et les Babyloniens une civilisation autant développée dans les domaines politiques, scientifiques, en génie et en médecine reconnaît dans de la civilisation d'aujourd'hui, mais ils n'ont pas renoncé à leur contact avec le ciel, comme le fait l'homme d'aujourd'hui, alors ils ont vécu un équilibre entre leur esprit et leur vie et garder son humanité, dans le temps ou l'homme d'aujourd'hui , qui a un certain recule au niveau moral, valeurs , quand il a déclaré que les faits reconnus par la raison, sont les seules vérités digne d'être connue .

المصادر

المراجع

أولاً- القرآن الكريم-برواية حفص عن عاصم :

- الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 1405هـ.

- تفسير ابن كثير، المجلد الثامن، مطبوعات مجمع الملك فهد للمصحف الشريف، المدينة المنورة

1408هـ.

ثانياً- الكتب:

1-إ.أ. جيمس، الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى القديم، ترجمة يوسف شلب الشام، دار

التوحيد، الطبعة الأولى، 1998.

2-أحمد زكي، الأساطير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.

3-ألكسي لوسيف، فلسفة الأسطورة، ترجمة منذر حلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية،

سورية، الطبعة الأولى، 2005.

4- أنطون مورتكات، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريف توفيق سليمان، علي أبو عساف،

قاسم طوير، (د.ت.ط).

5- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، قسم الدراسات العلمية،

مملكة البحرين، الطبعة الأولى، 2005.

6-سامية مصطفى الحشاب، دراسات في الاجتماع الديني، الكتاب الأول، علم الاجتماع

الديني، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1988.

7-سليمان مظهر، أساطير من الشرق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.

8-سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية 2002.

9- شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، دار ابن خلدون، الطبعة الثاني، 1983،
العربي، القاهرة 1967.

10- صمويل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، بحث في الأساطير، ترجمة صبحي حديدي،
دار الحوار، الطبعة الأولى، 1983.

11- عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى، بلاد ما بين النهرين
ومصر القديمة، المؤسسات الجامعية، للدراسات والنشر والتوزيع، (د.ت.ط).

12- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، منشورات دار
علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى، 1997.

13- فراس السواح، دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، منشورات، دار علاء
الدين، دمشق، (د.ت.ط).

14- فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، الرشيد للنشر. 1979

15- كلود ليفي شتراوس، الأسطورة والمعنى، ترجمة صبحي حديدي، دار الحوار، الطبعة الأولى،
1985.

16- محمد الخطيب، الإثنولوجيا، دراسة عن المجتمعات البدائية، منشورات دار علاء الدين.

17- محمد عباس، أفلاطون والأسطورة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، سنة الطبع 2008،
(د.ت.ط).

18- مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دار كنعان، دمشق، 1990.

19- م.ف.أبيدليل، سحر الأساطير، دراسة في الأسطورة، التاريخ، الحياة، ترجمة حسان ميخائيل
إسحاق، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الثانية، 2008.

20- نبيل محمد توفيق السمالوطي، الدين والبناء الاجتماعي، دار الشروق للنشر والتوزيع
والطباعة، الجزء 2، الطبعة الأولى، 1981.

21- نزار عبد الله، أساطير من فيتنام (مترجم)، دار المتنبّي، الطبعة الأولى، 1999.

ثالثا- رسائل جامعية :

- مراد زعيمي ، النظرية العلم اجتماعية رؤية إسلامية، رسالة دكتوراه، 1997.

رابعا- المجلات:

- فراس السواح، مجلة الموقف الأدبي، مجلة شهرية تصدر عن إتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد
264، نيسان 1993.

- ظاهر شوكت، وظائف الأسطورة قديما وحديثا، الحوار المتمدن العدد، 1764/2006-11-
26.

- جون هاليري وآخرون نظرية الرواية: مقالات جديدة.

خامسا-المواقع الالكترونية :

- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

www.tajdeed.org/article.aspx?id=1014

- أسطورة القرآن أم ألوهيته؟

www.Imadkanaan.jeeran.com/fikr/20%

سادسا: أقرص مضغوطة

موسوعة المعاجم العربية: مكتبة المعاجم واللغة العربية.

سابعا : المعاجم العربية

1-إمام عبد الفتاح إمام، معجم ديانات وأساطير العالم، مكتبة مدبولي، المجلدات الأول والثاني والثالث، (د.ت.ط).

2-زكي أحمد بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزي فرنسي عربي، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة الجديدة، 1995.

3-محمد عاطف غيث، دار المعرفة الجامعية، (د.ت.ط).

ثامنا : الكتب الأجنبية

1-Ahmed Sousse : Arabes et juifs dans l'histoire .

2-Jacques Pirenne, Civilisations Antiques, Edition, Albin Michel.

3-Petit Larousse en Couleurs, Librairie Larousse.

الملاحق

الملاحق:

معاني أسماء الآلهة ومهماتهم:

آشور: إله الحرب في أساطير الشرق القديم، ولا سيما عند الآشوريين. تزوج الإلهة الرئيسية عشتار، وكان آشور الإله الذي يرعى المدينة التي تحمل اسمه: مدينة آشور المدينة الحربية التي تقع على شاطئ نهر دجلة وقد أصبح إله الدولة الآشورية الرئيسي في أوج عظمتها، عندما كانت آشور أول مدينة تستخدم سلاح الفرسان، والعربات التي تجرها الخيل. ولقد استطاع آشور بصفته إله قوميا للدولة الآشورية أن ينتزع صفات ووظائف آلهة كثيرة لنفسه: فهو إله القدر، وإله القضاء، وإله الحرب، وأحيانا إله الحكمة. ويرمز له بقرص مجنح في داخله شخص يطلق سهما. كما أنه يظهر أحيانا برأس نسر. أما الحيوانات الأخرى التي ترتبط بآشور فهي: الثور، والعجل، والأس وتحمّل رايته وسط المعركة للدلالة على حضوره بين أتباعه وعبّاده.

عشتار: في أساطير الشرق القديم: الإلهة الأم العظيمة التي تعبد في أرجاء الشرق القديم. وهي نفسها الإلهة اشتار، وعشتروت والإلهة اليونانية أفروديت، والرومانية فينوس. كانت عشتار واحدة من أكثر آلهة الشرق شعبية في مجمع الآلهة. وهي العدو اللدود ليهوه-الإله العبراني- في العهد القديم؛ فاليهود تركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء إلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها واغاظوا الرب: تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروث (قضاة:2-13) وكانت عشتار إلهة الخصب والنماء تبنى لها المعابد، حتى الملك سليمان بنى لها معبدا من المرتفعات قبالة اورشليم التي عن يمين جبل الهلاك التي بناها سليمان ملك إسرائيل

لعشتاروث (الملوك الثاني 13:23) ثم يروي العهد القديم بعد ذلك كيف أن الملك أخاب وزوجته ايزابيل عبدا للإلهة عشتاروث، والإله بعل.

وترجع الخصومة بين عشتاروث ويهوه، في جانب منها إلى دور الإلهة كراعية للخصوبة في النبات، والحيوان والبشر. كما أنها ترجع من ناحية أخرى، إلى أن عبادتها تستدعي وجود بغايا المعبد. وكانت عشتاروث شهيرة حتى أنها عبدت في روما، وقبلها الرومان بشغف. ويصف الأديب الروماني أبوليوس في روايته «الحمار الذهبي» بسخرية كيف أن كهنة عشتاروث كانت وجوههم ملطخة بالأحمر، ومحاجرهم تلمع بريق العيون. وفي العصور الوسطى حول المسيحيون الإلهة من باب التهكم والسخرية إلى شيطان ذكر. وربطوا بينه وبين الشيطان أزموذاوس: «لأنه كان قد عقد لها سبعة رجال، وكان شيطان اسمه أزموذاوس يقتلهم على أثر دخولهم عليها في الحال (سفر طوبيا 3 : 4) وما زال اللفظ في اللغة العربية يحمل المعنى الجنسي فيقال عشتت الناقة وأعشتت بمعنى حملت.

مردوخ: اله وبطل في أساطير الشرق القديم (البابلية) الذي هزم وحش العماء المسمى : تيمات ، فنودى به ملكا على الآلهة.

وتروي أسطورة مردوخ ملحمة الخلق البابلية المسماة أنوما أليش (عندما في الأعالي).. هي افتتاحية الملحمة.. «عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء وفي الأسفل لم يكن هناك أرض..» لم يكن ثمة شيء سوى الحياة الأولى التي كانت تعيش فيها تيمات تنين البحر أو أفعى الظلام، وقد قتلها البطل مردوخ ثم شقها نصفين، فانفتحت كالصدفة، فصنع السماء من نصفها الأعلى ، والأرض من نصفها الأسفل.

ويروي بعض الباحثين أن السبب في صعود الإله مردوخ إلى قمة الهرم الإلهي في مجمع الآلهة البابلي يعود إلى عوامل سياسية خالصة. فهو بعد أن كان إلهًا محليًا هامشياً يكاد لا يذكر، أصبح الإله القوي للشعب البابلي الذي استطاع أن يمد أطراف الدولة البابلية في عهد حمورابي إلى أقاصي حدود عالم الشرق القديم، وأصبحت بابل عاصمة الدولة الفتية، ومركز إشعاعها الحضاري.

آنو: إله الرخاء والوفرة في الأساطير السلطية، وهي تظهر في التراث الشعبي السلتي باسم آين.

آنو(السماء): إله السماء في الأساطير السومرية، وهو يرأس مؤلفاً من «آن - أنليل - آيا» وهو يسمى أحياناً بالإله آن. وزوجته هي الإلهة أنتوم، أما ابنته فهي الإلهة باو. وفي ملحمة الخلق البابلية أنوما إيليش يذكر أنو على أنه ابن الإله الأول أنشار، ويسمى الإله آنو في ميثولوجيا الحيثيين باسم آنوس.

وتروي إحدى الأساطير أنه خلع والده الآلوس عن العرش، لكنه بدوره يخلعه ابنه كوماري عن العرش، ويخصيه بعضه واحدة قوية في قضيبه، ويصق القضيب من فمه ومعه ثلاثة آلهة هم تيشوب إله العاصفة، وتاسميسوس مرافق الإله، وإله النهر. ثم نجد أن تيشوب بدوره يخلع توماري عن العرش، وينجب عملاقاً يقضي عليه الإله آيا.

ورمز الإله آنو هو النجمة وغطاء للرأس فيه قرنه.

آيا: زوجة إله الشمس شماش في الأساطير البابلية والآشورية، وتسمى أحياناً ماكاتو (سيدة-خليلة - ملكة). وربما كانت آيا في الأصل إلهة مذكراً محلياً للشمس، ثم تغير جنسه إلى أنثى عندما كتبت السيادة لعبادة إله الشمس الرئيسي شماش، ومن ثم أصبح الإله المحلي أقل مكانة، فتحول إلى أنثى وأصبحت زوجة له.

أبسو: الإله الأول للمياه العذبة في الأساطير البابلية- وأساطير الشرق الأدنى عموما- وهو زوج تعامة أوتيمات (تين البحر). والكلمة سومرية الأصل مجهولة المعنى تسربت الى الأكادية، ولعلها تعني الهاوية أو الأعماق . حيث يقع أبسو تحت سيطرة اله المحيطات والأعماق انكي ونفوذ. ويطلق على معبده الرئيسي في أريدو اسم: بيت أبسو.

وأبسو هو الذكر وتعامة هي الأنثى ومنهما معا يتشكل المبدأ الأول للكون ، غير أن آيا ابن أبسو يقوم بإخصاء والده ويأخذ مكانه كاله للمياه العذبة. ولقد ظهرت عبادة آيا كاله للمياه العذبة حتى في معبد الملك سليمان حيث توضع جرار المياه العذبة بجوار المذبح العظيم في البهو الواسع. والحوض الكبير في البهو يسمى أبسو.

اليل: اله خالق عند الحثيين، ويبدو أنه مشتق من الإله البابلي اليل.

اليل: اله خالق في بلاد ما بين النهرين- الديانة البابلية والأكادية- وهو نفسه الإله انليل.

أيا: اله المياه العذبة في ديانات الشرق القديم (السومرية والأكادية) وهو أيضا اله الأرض، واله الحكمة . وراعي الفنون وأحد الآلهة الذين خلقوا الجنس البشري ، ويسمى أيضا انكي.

وفي ملحمة التكوين البابلية الاينوما اليش يمجد ايا لقيامه بالخلق:-

«من خلق الموجودات سوى ايا؟»

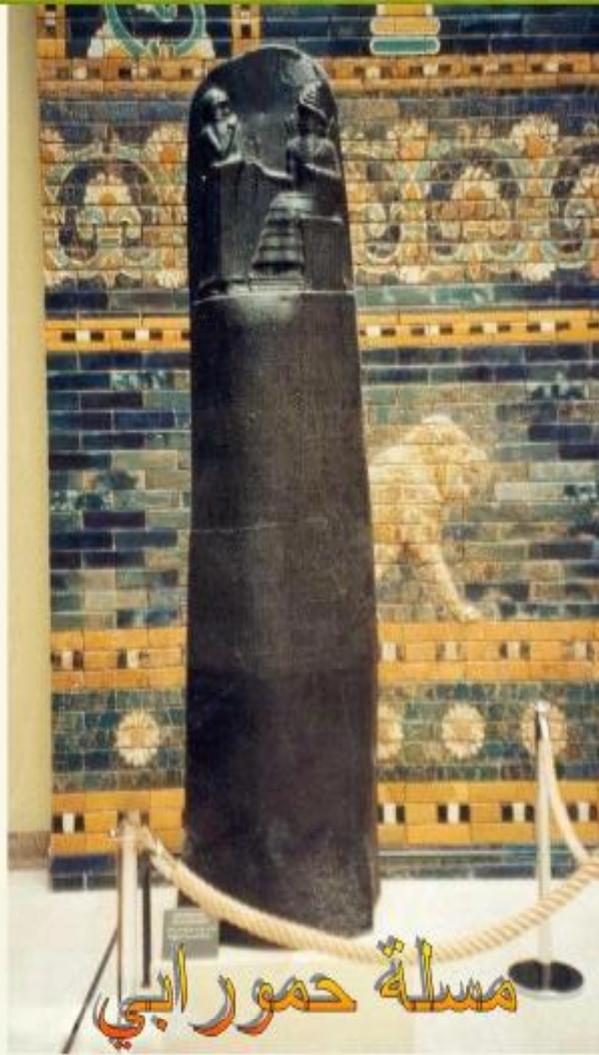
ايا هو الذي يعرف كل شيء».

وفي نصوص أخرى متأخرة يظهر ايا على انه هو الذي ساعد الجنس البشري، إذ يظهر الإله على هيئة حيوان مزود بالعقل، وله جسم يشبه السمكة وله تحت رأس السمكة رأس أخرى وأقدام تشبه أقدام الإنسان ملحقة بذيل السمكة. كان هذا الحيوان الغريب يتحدث مثل البشر، ويعلم

الناس جميع أنواع الفنون، كما شرح لهم مبادئ المعرفة الهندسية، كما أن ايا علم الناس أيضا كيف يحرثون الأرض، ويجمعون الثمار، كما أرشدهم إلى جميع أنواع السلوك الرقيق المهذب، وجعلهم بشرا.

وكانت مدينة أريدو هي المقر الرئيسي لعبادة الإله ايا، وهي مدينة سومرية قديمة على الخليج العربي ، أما زوجته فهي الإلهة دمكينا وابنة الإله مردوخ، وكان يرمز له في الآثار الفنية برأس حمل أو ماعز مع جسم سمكة، والنحاس هو المعدن المفضل عنده، ويعرف ايا أيضا باسم انكي سيد العالم، وهو ثالث عضو في مجمع الآلهة السومري إلى جانب آنو(آن) وبعل(انليل) اله الأعماق والحكمة. أيا: زوجة اله الشمس في الديانة السومرية (وهي غير الإله السابق).

نينورتا: اله سومري يعني اسمه سيد الأرض، تسرب إلى الديانة الأكادية، وحافظ على اسمه السومري. وهو ابن الإله انليل، وزوجته هي آلهة الشفاء جولاء. ويجسد نينورتا الخصوبة. حيث تمتدحه القصائد السومرية لوفرة المحاصيل الزراعية والثروة السمكية والحيوانية بفضل بركاته. ويعتقد بعض الباحثين أن نمرود الذي ورد اسمه في الكتاب المقدس (العهد القديم) في سفر التكوين (الإصحاح العاشر:9) هو تحريف لاسم نينورتا. ويرمز لهذا الإله بنسر ناشر جناحيه.



مسلة حمورابي (تقليد) الاصلية في متحف اللوفر في باريس

بلغ عدد متوك سلالة بابل والتي تعرف بـ(السلالة الامورية) أحد عشر ملكاً ، حكموا ثلاثة قرون حيث بلغت حضارة العراقي أوج عظمتها وازدهارها ، وعمت اللغة البابلية ، تكلموا وكتابتها ، المنطقة لاطبية .. وارثت العلوم والمعارف والفنون .. واتسمت التجارة انصاعاً لاسمبل له في تاريخ هذه المنطقة .. وكانت الإدارة مركزية ، والبلاد تحكم بقانون موحد سنة الملك حمورابي لجميع شعوبها

حمورابي

حكم هذا الملك العظيم في بابل بين عامي 1792 - 1750 ق . م . وعندما تسلم الحكم كانت في البلاد فوضى مختلفة . وهويات متفرقة تتنازع السلطة ، فاستطاع أن يوحد ما ، وأن يبني بها صرح امبراطورية مترامية الأطراف . ضمت جميع أنحاء العراق ، والمدن القريبة من بلاد الشام حتى سواحل البحر المتوسط ومناطق أخرى . وكان حمورابي شخصية عسكرية عالية القدرة إضافة الى الجانب الإداري والتشريحي لديه لم يكن يقل عنه في الجانب العسكري .

إن مسلته الشهيرة المنحوتة من حجر الديوريت الأسود والمحافظة الآن في متحف اللوفر بباريس ، تشير واحدة من أقدم وأشمل القوانين في وادي الرافدين والعالم .

وعقلها على معازل المدن ومخارجها كي يطلع عليها داخلوا تلك المدن ويطبّقوها وأن يتحدّثوا بها لشعوب البلدان الاخرى حينما يغادرون المدن البابلية

تحتوي مسلة حمورابي على 282 مادة تعالج مختلف شؤون الحياة ، فيها بجد الغرائ تنظيمياً واحياً لكل مجالات الحياة . وتعدّياً وعلى جانب كبير من الدقة تواجبات الفرد وحقوقه في المجتمع ، كل حسب وظيفته ومسؤوليته

كانت مواد المسلة ال (٢٨٢ فقرة) مقسمة في أبواب يناقش كل باب منها جانباً متخصّصاً في مجالات العلاقات والأمور الاجتماعية والحياتية سواء في أثناء السلم أم الحرب .. وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فالطبيب الذي يعالج مريضاً ويشيب في وفاته يتحمل وزر عهده وقد تسلم عقوبته إلى ايقاع الموت به وهكذا باقي مجالات الحياة ولم تغفل (المسنة) حتى أمر العاطلين والمزبئين بل وتحدت تلك (المسنة) إلى وضع أسس حتى للتسامح مع الحيوان وتربيته ونقل مقولة (أهبة العجماء ضرار...) التي تتناولها القوانين الوضعية في أيامنا هذه إن هي الا امتهاد لتضمنته (المسنة) في احد بنودها ، فصاحب الفرس الذي يوقس طفلاً ويؤذيه والكلب الذي يعض شخصاً ويعرّضه لفرث قوانين حمورابي في مسلته يتحمل صاحب الفرس أو الكلب مسؤولية ذلك

فهرس البحث

.....	شكر وتقدير
.....	إهداء
.....	خطة البحث
2.....	مقدمة

الفصل الأول: الإطار المفاهيمي للدراسة

10.....	أولاً: أهمية الموضوع
11.....	ثانياً: أسباب الاختيار
12.....	ثالثاً: الأهداف
14.....	رابعاً: الدراسات السابقة
16.....	خامساً: تحديد المشكلة وصياغتها
23.....	سادساً: تحديد تساؤلات الدراسة

الفصل الثاني: تحديد مفاهيم الدراسة

25.....	أولاً: مفهوم الأسطورة
25.....	1- مفهوم الأسطورة لغة
27.....	2- الأسطورة اصطلاحاً
34.....	ثانياً: مفهوم الدين
34.....	1- الدين لغة
35.....	2- الدين اصطلاحاً
38.....	ثالثاً: مفهوم الأسطورة الدينية
46.....	رابعاً: مفهوم النظام الاجتماعي
46.....	1- النظام الاجتماعي لغة
47.....	2- النظام الاجتماعي اصطلاحاً

الفصل الثالث: موجز تاريخي عن أصل الأسطورة و النظريات التي

حررت في ذلك

وعرض تعبير أساطير الأولين في القرآن الكريم

أولاً: نشأة الأسطورة من الناحية التاريخية 52

1- النظرية الدينية، أو نظرية الكتب المقدسة 55

2- النظرية التاريخية 56

3- النظرية الرمزية أو المجازية 57

4- النظرية الطبيعية 57

ثانياً: الأساطير في القرآن الكريم 58

الفصل الرابع: علاقة الأسطورة بغيرها من المصطلحات المشابهة لها

أولاً: علاقة الأسطورة بالخرافة 65

ثانياً: علاقة الأسطورة بالحكاية البطولية 80

ثالثاً: علاقة الأسطورة بالحكاية الشعبية 90

رابعاً: علاقة الأسطورة بالفلكور 94

الفصل الخامس: المعالجة التطبيقية لدراسة النظام الاجتماعي

الآشوري -نموذجاً-

أولاً: إجراءات المعالجة المنهجية لموضوع الدراسة 102

1- دراسة تاريخية عن الإمبراطورية الآشورية وشعبها 102

2- المنهج المطبق في موضوع الدراسة 109

ثانياً: دور الأسطورة الدينية في بناء 111

1- النظام الديني 111

1-1- المعتقدات 111

1-2- الأخلاق 115

1-3- التشريع 118

120.....	2- نظام الأسرة
122.....	2-1- الزواج
124.....	2-2- الطلاق
125.....	2-3- الميراث
127.....	2-4- التبني
128.....	3- النظام الاقتصادي
128.....	3-1- الزراعة
130.....	3-2- الآفاق التي فتحتها الزراعة
136.....	4- النظام السياسي
136.....	4-1- السلطة
139.....	4-2- فرض النظام
142.....	4-3- تشكل الجيش
147.....	الخاتمة
151.....	التوصيات
155.....	ملخص بالعربية
156.....	ملخص بالإنجليزية
157.....	ملخص بالفرنسية
159.....	قائمة المراجع
.....	الملاحق